أكرم إبراهيم البكري

سديم النيل

رواية

2025

سديم
النيل

أكرم البكري

سديم النيل

رواية

أفهامُ الخلائق لا تتعلق بالحقيقة، والحقيقة لا تتعلَق بالخليقة، الخواطرُ علائقُ، وعلائقُ الخلائق لا تصل إلى الحقائق، والإدراك إلى علم الحقيقة صعبٌ، فكيف إلى حَقِّ الحقيقة؟

الحلاج

تنويه

ذات مساء انفتح على باب الحكي كما تُفتح النوافذ على رائحة المطر الأولى جاءتني هذه القصة محمولة على لسان والد أحد الأصدقاء، كأنها وديعة قديمة تنتظر من يُعيد بث نبضها على الورق.

وفي خضم انغماسي في كتابة المسودة الأولى تسلل إلى إحساس لا يُقاوم أن صاحب الحكاية الحقيقي ليس مجرد راوى بل هو ظل يجب أن يتمدد بين السطور وصوت ينبغي أن يُسمع من خلف الكلمات لذا قمت وبكل امتنان بالاستئذان منه ومن الأصدقاء لأضيف هذا التنويه بوصفه ضوءاً صغيراً يدل القارئ على الطريق الذي سلكته الحقيقة حتى وصلت إلي

.....

جميع الأسماء التي وردت في الرواية هي أسماء مستعارة، احترمت بها خصوصية أصحابها لكن الأرواح الحقيقية ما زالت تنبض خلف كل مشهد

إهداء

إلى أختي الحبيبة إسراء إبراهيم بكري.....
رفيقة الحرف والحلم.....
التي احتضنتني في منزلها العامر بالمحبة، أزاحت عني عناء الأيام، وخلقت لي عالماً من السكينة والطمأنينة لأغوص في عوالم (سديم) دون قيد أو انشغال
أن كلمات هذه الرواية تنبت على ضوء محبتك....
وتشكلت من صبرك ودفء حضورك.....
فلكِ كل الامتنان... وكل الفضل بعد الله،،،،،
بقلب ممتن ما نَسي ..... وقلم شهد،،،،،،،،

أكرم إبراهيم البكري

شكر وعرفان

إلى الصديق الباشمهندس حامد بخيت،
وإلى الأستاذة سارة الــجاكـ

كان النص في بداياته كعود أخضر يترنّح في مهبّ الفكرة،
حتى مرّت عليه أناملُكم فأنضجته دفءً ووعياً.
كنتم كمن يمسك بمصباح في درب معتم، تضيئون الزوايا وتهمسون للحروف أن تُرتب صفوفها.
ملاحظاتكم لم تكن مجرد هوامش على الورق، بل كانت بمثابة نُدب من نور على جدار النص، تُوجه وتُهذب، وتُعيد للمسار بوصلته
وبتفانيكم في المراجعة، أصبح للحكاية نبض أوضح، وللكلمات ظل لا يخطئه القارئ

لكم من القلب ألف امتنان.....
ومن الحروف هذا الإنحناء.....

الغربة

بعض الأرواح تعود من المنافي وهي تحمل لعنة وأنا كنت أكتب كي لا تلتهمني ظلال لعنتي

في تلك الليلة قبل أن يقذفني الطريق إلى ثمريت تلك المدينة الصحراء جنوب سلطن عمان، رأيت النيل يفيض بلون غامق، لم يكن ماء، ولم يكن دماً، بل شيء بينهما، كأن الحياة لفظت آخر أنفاسها على صفحة النهر ، ومن الضباب خرجت امرأة لا وجه لها كانت تجر ثوباً من الكتان الممزق، مغمساَ بالرماد، وتصرخ مثل مجنون في نوبة حادة باسم بخيت، في الجانب الاخر وعلى نخلة مائلة تتدلي جثة بحبل غليظ، الريح كانت تضحك، والغربان تُرتل أسماء لم أعد أذكرها، كنت واقفاً على الضفة، اكتب على ورق من نار وغضب

الخطيئة لا تُغتسل بالمـــــاء، بـــل بـــالحريق

ثم استيقظت وصدري حطباً مشتعلاً، كأن الحلم تسلل الى الرئة، واغلق نوافذها واحدة تلو الأخرى، في نفس الليلة خافته الضوء هذه اجتاحتني نوبة ربو عنيدة، كأن الهواء قد ضنّ على بما يسع صدري وبشق الأنفاس بلغت المركز الصحي بالمدينة، جلست على كرسي العلاج أستنشق أملاً يتصبب

فانتولينً بعد مقابلتي للطبيب، فجأة صدح هاتفي برنين مباغت نظرت إليه بعيون مرهقة، رقم غريب لا أعرفه وتطبيق تروكلر عجز عن كشف النقاب عن هوية المتصل، تنهدت في سري يا ترى من يقطع سكوني في مثل هذا التوقيت العسير؟

بإصبع مرتجف ضغطت على الزر الأخضر وخرج من صدري صوت بالكاد يسمع: -

-ألو..... فجاءني صوت أنثوي دافئ يحمل نبرة مودة مألوفة: -

-عثمان... كيفك؟ سمعت من بابا إنك زرتهم قبل أسبوع... فعلاً إنت في صلالة؟

حاولت استجماع ذاكرتي المثقوبة قلت : - معاي منو؟

قالت متعجبة: - معاك منو... كيف؟ مال صوتك؟ أنا جيهان، يا عثمان.

اتسعت حيرتي، وأنا أعدل جلستي وقد بدأ صدري يخبو من أزيز الأزمة، همست: -

-جيهان منو؟

تسلل شيء من غيظ إلى صوتها قالت: -

- مالك يا عثمان؟ صوتك ذي الزول التعبان... أنا جيهان محسن، جيجي...

هنا انتبهت فجأة، واتسعت عيناي كأن ذاكرتي انتفضت دفعة واحدة، التفت إلي المُمرض المصري الذي أرخي اذنيه نحوي وقد سمع جزءً من الحديث، فقهقه قائلاً بنبرة مرحة: -

-ما شاء الله عليك يا زول، واضح تأثير المكالمة أقوى من الفانتولين.

تجاهلت مزاحه، وقلت بلهفة: جيجي! متى رجعتي؟ إن شاء الله بخير... كنتي في إندونيسيا، صح؟

ضحكت بقلق ظاهر على صوتها: -

-كنت في ماليزيا يا عثمان .... صوتك متعب.... وما مركز اكيد دي الازمة، وينك هسه؟

نظرت إلى ساعتي كانت تشير الى الثامنة تماماً، وقلت: -

-كنت في نوبة ربو عنيفة، لكن الحمد لله تعافيت شويه، وأنا في طريقي للخروج من المستشفى.

قالت وقد ازداد قلها أكثر: -

-مستشفى؟ أنت بالمستشفى؟

قلت بصوت خافت: - نعم... لكنني سأغادر الآن.

ردّت بصوتها مخبول بالقلق: - لا تتحرك، نحن في طريقنا إليك...!!!

- جيهان، لا أستطيع الانتظار في المستشفى ساعة ونصف، والوقت متأخر. الطريق من صلالة إلى ثمريت ليس آمن في مثل هذا التوقيت صدقيني، لا داعي لمجيئكم.

جائ صوت رجولي حاسم وحنون: -

-أرسل موقعك، نحن قادمون يا بني.

أدركتُ أنها أعطت الهاتف لوالدها ليقطع الجدل في ذات اللحظة، ظهرت على الواتساب رسالة من رقم آخر أرسل موقعك عندما تصل... جيجي.

خرجت من المركز ببطء، تحملني خطوات أثقلتها الخيبات والمرض، سيارتي قادتني نحو غرفتي المستأجرة من عامل باكستاني كنت قد تعرفت عليه اثناء بحثي عن سكن، لم يكن يجيد العربية الا بقدر ما يسد رمق التفاهم بيننا، لم تكن غرفة على وجه الحقيقة، بل سرداب تحت الأرض، أشبه بمنفى حُفر بلا ذاكرة، بلا نافذة ولا حياة، رطوبة كثيفة تتنفس من جدرانها، وهواء ساكن يحمل رائحة العرق العالق على قمصان عمال عبروا هذا المكان بأحلام منسية لو كتبت تلك الرائحة روايتها لاختارت لغة الأنين.

بلاط الغرفة أحمر قاتم يغطي الأرض، وجدران تئن تحت وزن الزمن، كأنها أضلاع تعبها الانتظار والمروحة الوحيدة على السقف تدور كدعاء رتيب لا يُستجاب، تصدر صوتاً يشبه تسبيح مغترب يعد أيام الغربة كمن يعد حجارة الطريق لا هواء،

لا رجاء، فقط الصمت، ورغبة في أن تمر هذه الليلة، الغرفة لم تكن مأوى، بل مرآة مؤقتة لوحشة أكبر.

أما ثمريت فلم تكن مدينة كما تُعرفها الخرائط كانت قرية تمشط شعرها بمشط من إسمنت خرجت من عباءة الطين وسعف النخيل وبيوت الشعر، وارتدت بزة حضرية لامعة، لكنها لا تخفي ارتباكها، الأرض التي كانت تئن تحت خطى الإبل، تمدّ الآن شوارعها الإسفلتية كأنها عروق جديدة في جسد قديم.

المصابيح على جانبي الطريق، كنجوم نزلت لتُرشد من لم يتعوّد على العتمة، والبيوت اصطفت كجنود في عرض حضاري، لكنها تفتقد روح القصيدة، تحولت نوافذ وبر الإبل إلى زجاج بارد، وصوت الفخار إلى أزيز المكيفات.

الحداثة دخلت هذه المدينة بخطى رشيقة كعابر في حفلٍ ليس له فيه مقعد، جلست على مائدة الذكريات، بدّلت فناجين الشاي بدفعات قهوة مختومة بعبارة جاهز خلال ثوان، المدينة الآن مشغولة بمراياها، لكن سكانها لم يغيروا جلد الصحراء في أعماقهم ما زال الرمل يتبع أصواتهم وإن لبسوا البذلات الرسمية، ما زالوا يفتشون عن الماء في وجوه بعضهم، وعن الغيمة في لهجاتهم.

تمدنوا من الخارج أما دواخلهم، فهي صحراء تنتظر المطر.

حين وصلت إلى غرفتي القبو، كانت الكتب مبعثرة كأنها حراس صامتون على مشارف وحدة طالت، أحاول أن أستعير

منها طمأنينة تمتص ملل الليالي، وأُسكت بها وجع الخيبات التي تخترق صدري كل مساء، جلست على طرف السرير المهمل بعناية، ورميت أدوية الطبيب جانباً فالمسكنات لا تخدر وجع الروح، ولا تهدهد صداع الحنين والتشتت الذي سكنني كغيمة لا تجد الريح.

وفي لحظة شرود، أخرجت هاتفي، وأرسلت الموقع عبر الواتساب إلى الرقم ذاته، ثم سرحت قليلاً، لقد وجدت في تلك المكالمة المفاجئة مع جيهان شيئا من ارتياح غامض، كأن نسمة قديمة عبرت حنجرة الذاكرة.

جيهان لم تكن صديقة بالمعنى العميق، بل ظل لمعرفة عابرة من زمن الجامعة درست أنا في جامعة السودان بحلة كوكو، أما هي ففي جامعة الخرطوم، الأسكول كانت معرفتنا لا تتعدى نقاشات عابرة خلال نشاطات سياسية، أو وقوف عفوي في ساحات النقاش لم تكن تنتمي إلى حزب، ولم تنشغل بالسياسة، لكن شيئا في صيحات الحماسة التي كانت تصدح في شارع المين كان يغريها، كانت تمثل نموذجاً للفتيات اللاتي خرجن لتوهن من دفء البيوت، يتلمسن العالم بنظرة دهشة وفضول.

أحاديثي مع شلة جيهان كانت سطحية، تحايا عابرة، جُمل مقتضبة عن الوطن، وقليل من النقاشات، غالبا في حضرة صديقي الأمين. كانت مجموعتهن تضم شاهيناز، فتاة طويلة،

ذات حضور لافت، بقدر عالي من الجمال والحدة أما آسيا فكان فيها من الرقة ما يكفي ليلمع الحزن بعيونها، تبتسم دائما كأنها تقول: - رغم كل شيء، ما زالت الحياة تستحق الأمل.

جيهان كانت الأبهج بينهن تتحرك كطفلة تطارد ظلها بمرحٍ نقي، وفيها من البراءة ما يجعل اللحظة تبتسم رغماً عن التعبِ ذات مرة قال الأمين: أخشى على هذه الفتاة من الحظ العاثر لم أفهم يومها، لكنني سكت، وراقبتها بقلق لا أعرف مصدره.

مرت السنوات، وتراكم الغبار فوق الأسماء والوجوه انشغلنا بمرجيحة الحياة التي ألقت بنا في بلدان بعيدة، نناجي فيها الله ستر الرزق وحماية الأوطان.

ثم جاء صباح رمضاني، كئيب كنشرة أخبار لا تبشر سوى بالوجع أذاعت وكالات الأنباء اندلاع الحرب في السودان واتهم يوسف إنه من حرض الذئب بأكله، واجتاحت الجنجويد الخرطوم بعد انسحاب كامل للجيش بدا وكأنه إعدام صامت للأمل فينا تهشم الوطن، وتفرق ابناءه كما تتناثر نجوم انطفأت، وكان نصيب عُمان من هذا التشظي نصيباً يكبر كل يوم...

وصل والداي إلى صلالة، يحملان في حقائبهما شتات العائلة التي مزقتها الحرب، وتفرقت أرواحنا على خارطة خمس دول عربية. كانا بقايا وطن تمزق، ووجهاهما المنهكان يحكيان عن فقد لا يُروى.

أتذكر مساء ذلك اليوم كما لو كان يتكرر كل ليلة، كنت أحاول انتشال والدي من سجن الحنين، ذاك الذي صنعته له شرفات الطابق الرابع، حين كان يتأمل المدينة الجديدة بعين لا ترى ما أمامها، بل ما خلفها من ظلال أم درمان قال لي ونبرة صوته تخالطها شقوق العمر: -

- الحرب يا ولدي، هي لعبة الجنرالات الوحيدة التي يُشركون فيها الشعب، ويمنحونهم بطاقات الموت مجاناً... إنها رخيصة برخص ما فيها من دماء.

رن الهاتف فجأة، وسمعت صوت أمي من الغرفة المجاورة تناديني على عجل، لعل المتصل أحد إخوتي، يحمل نبأ يقين أو بصيص رجاء. كبرت امي منذ أن غادرت الوطن قبل شهر، كأن عشر سنوات مرت فوق ملامحها، باتت كثيرة التسبيح، ساهمة، لا تهتم لما ضاع من متاع، حتى حين علمنا بنهب منزلنا بأم درمان، لم تنتفض، بل اكتفت بتنهيدة خافتة وترديد: صَبْرٌ جَميلٌ، واللّٰهُ المستعان.

لم أري والدي بهذه الهشاشة من قبل، كنا نعيش في أجمل مدن الخليج طبيعة، لكن الآن لم تعد لصلالة بهجتها، ولا للطبيعة أنفاسها المطمئنة، الحرب اختزلت كل شيء في اللاشيء، قتلت في والدي الرغبة في الحياة، وسحبت البهاء من الأشياء.

ما أقسى الوطن حين يحتفل بشتات الأرواح، ويحول

الأجساد إلى طيور مهاجرة لا تعرف العش، ولا الليل يعرفها. في بلدي تصير الأحزان مؤنسة، والجراح تنام في مهودها، وتغدو الدموع مرآة تُطيل النظر في اللاجدوى.

ناولتني هاتفي المحمول، أملاً بسماع صوت أحبّته، نظرت إلى الشاشة رقم عُماني غريب يتصل ضغطت زر الرد وقلت:

- ألو، السلام عليكم...

كان الصوت على الجهة الأخرى أنثوي، مشتت بين ضوضاء المكان ولهفة التعرف: -

عثمان إبراهيم... معاي؟

- معك، تفضلي.

- معاك جيهان...

أخذت تُعيد على مسامعي فصولاً طواها الغبار، من أيام الجامعة، وشارع المين بجامعة الخرطوم. تحاول انتزاع الاعتراف من ذاكرتي المتعبة، فذكرتني بصديق كنت أرافقه دائما، اسمر، أصلع الرأس...

قلت، محاولاً شد خيط بين الزمنين: - تقصدي دكتور الأمين...

قالت، وكأنها عثرت على ما كانت تفتش عنه طويلًا: - نعم، نعم... الأمين!

قلت مجاريا نبرة الحنين تلك: - أصبح جراح بارع في إنجلترا الآن.

راحت تذكرني بصديقاتها وبعض التفاصيل التي غابت تماما عني، لكنني في لحظتي تلك وسط الوحشة والهموم، لم أستطع التمييز بين الأسماء التي كانت تطرق الذاكرة كما يطرق الماء الصخر دون أثر، حاولت أن أستدعي ملامحهم من جب النسيان، لكن ذاكرتي خانتني، كما خانتني في مواضع كثيرة من قبل، لا أدري، أهو الزمن؟ أم هي الأثقال التي نُجرها كل يوم دون راحة؟

قلت لها، محاولاً أن أختصر الحديث بينما صوت أمي يتعالى من الغرفة المجاورة تسأل بلهفة إن كان أحد إخوتي على الخط، فأشرت إليها أن لا علاقة للمكالمة بهم: -

تحت أمرك سيدتي، لكن لا أذكرك... وإن بقيت بعض ملامح ما قلتِ عالقة في خاطري. حتى اسمك لا يُربط في ذهني بصورة واضحة لقد مرّ أكثر من عشرة أعوام وأنا هنا في السلطنة

فردت بنبرة واثقة: - نعم، أعلم أنك في صلالة منذ زمن، وجئت بأهلي مؤخرا للسلطنة، اخترت صلالة مقرا لنا، وأحتاج مساعدتك في إيجاد فيلا أو منزل أرضي واسع... بسعر مناسب.

همست، بين الدهشة والاستفهام: - فيلا؟ مرة واحدة كدا؟

قالت بإصرار: -نعم... فيلا أو منزل كبير.

ارتفع أذان العشاء، فأنهيت المكالمة بلطف: -حسنا، سأستعلم وأرد عليكِ عبر هذا الرقم.

أغلقت الهاتف، ومضيت إلى الغرفة حيث كان والدي قد انضم إلى أمي، محاولا إعادة ذكري هشة لتفاصيل نفس التوقيت في امدرمان، رائحة الألم كانت تملأ أجواء الغرفة، والدموع متحجرة في عيني أمي، كأنها تخشى أن تتكسر إن بكت. كل شيء صار صامتا، حتى رذاذ المطر المعتاد في صلالة بهذا الوقت من العام بدأ كأنه بكاء حزين على ما آل إليه حالنا.

لم أحتمل، خرجت إلى الشرفة، أراقب السماء وهي تبكي، وألعن عبث الحرب التي سلبتنا كل شيء، السودانيون، كل منهم يداعب جرحه كما يعرف، من فقد ابنه، ومن دفن أخاه، ومن شقي عمره خلف الحدود صار كل شيء خاشعا... حتى الموتى!

رائحة الأحزان تخيم على الوطن، والأنين صار من طقوس العيش، أدمنا الحزن كما يدمن المرء طقوسه اليومية، حتى صار الشعور بالفقد عُرفا، وانعدمت الفوارق بين العادي والمفجع

لقد خذلت الحرب الإحساس فينا، وما عدنا نميز بين الحياة كنعمة، والموت كاعتياد.

حين التقيتُ بأسرة جيهان، وأسرتي شاهيناز وآسيا وأطفالهن، خيمت على رهبة الغياب الطويل، الوجوه التي عرفتها يوماً بدفءِ الجامعة ومرحها الطفولي، ارتسمت عليها تضاريس الزمن، تغيرت الملامح، واختفت البراءة القديمة، لكن ابتساماتهن ظلت تقاوم موتاً يمر في الوطن كالنسيم، بلا ضجيج، بلا توقف، حتى جيهان التي كانت تحترف بيع الأمل باتت تبحث عن كلمة واحدة تنتمي إليه. قلت في سري: - ما الذي جرى لهذا الوطن حتى استحال فيه الحلم إلى هم والأمل إلى سؤال يتيم؟

عرفت من آسيا أن زوجها، الضابط في الجيش، اسُتشهد في المعركة الأخيرة عند مطار الخرطوم، فخرجت هاربة بأطفالها رفقة أسر صديقاتها، ولا تزال تسكن ظل رحيله، كانت تمشي كجسد فارغ، لا يسكنه شيء سوى الذكرى، تعتاش على دموعها، وتجد في الحزن موعداً مؤجلاً مع من غاب، لم تكن تبكي كثيراً، لكنها كانت تعشق حزنها كمن يصادق مرآته المهشمة.

شعرت بنظرة شفقة في عيني، وارتبك قلبي بوجعٍ دفين رغم غيابي الطويل، إلا أن الشجن تسلّل إلى من هذا اللقاء، كما تتسلّل رائحة الخريف من بين هسهسة الأوراق الساقطة على تربه طينية، ولأم درمان تحديدا نداء خافت يوقظ الذاكرة ليستدير الدمع وتعيد صوغ الحزن بلغتها الخاصة للمدينة الطينية التي لم نُسلم عليها سلام الوداع، بل تركناها معلقة على حافة

الريح.

أما جيهان، فعرفت من والدتها أن زواجها، رغم أطفالها الثلاثة، لم يكن مأوى للأمان، بل خيبةً أخرى، كانت نظراتها تتكسر من الداخل، وحديث والدتها يصلني كهمس مقطّع عن شريك رحل بعدان تركها في منتصف الطريق، في قلبي وشوش صوت يقول: -

ربما خطيئة العاشقين كانت في اللقاء... نعم، ذلك اللقاء الأول، تلك الكارثة الصغيرة التي تتفتح على هيئة حب، ثم تنقلب إلى وجع دائم.

شاهيناز وحدها من كفرت بمؤسسة الزواج ،كانت ترتعد من فكرة الارتباط كما ترتعد الأرض الجافة من أول قطرة مطر، لا تفرح، بل تخشى الفيضان، انقسم منزلها القديم حين انفصل والداها، وترسبت في وجدانها قناعة أن البيوت تُبنى بالرمل لا بالحجر، وأن الوعد ليس إلا شرخا مؤجلاً، احتمت بالتحصيل الأكاديمي كما يحتمي طفل بثوب أمه الراحلة، وغاصت في الكتب لا حبا في الشهادات، بل نجاة من يد قد تمتد ثانية بالجذلان.

منذ ذلك اللقاء، انقطعت الأخبار، وابتعدنا دون وداع انتقلت مع والدي إلى مدينة أخرى، وتراوحت حياتي ما بين عُمان والإمارات وقطر، حتى عدت مجددا إلى جنوب السلطنة، قمت بزيارة مفاجئة لعم محسن، وتركنا أمر اللقاء القادم للقدر.

وها هو القدر يُعاود الطرق...

أفقت من ذكرياتي على اتصال من جيهان: - نحن بالخارج، حسب الموقع المرسل.

سمعت صوت سيارة تتوقف قرب غرفتي، الليل في ثمريت، وإن كان ليلة جمعة، يحمل سكونا موحشا، كسكون قبرٍ طُمر بالصمت، لا يكسره سوى مواء متقطع لقطط شاردة، كأنها أرواح تائهة لا تعرف سبيلاً فتحت باب الغرفة على عجل، وفي الناحية اليسرى لمحت وجه أحمد الأخ الأصغر لجيهان، يطل ضاحكا من نافذة السيارة المرسيدس: -

– يا حبيبنا... قلنا الزول دا راقد ما قادر يتحرك!

ضحكت وأنا أتقدم نحوهم:

– عمر الشقي بقي، يا صاحبي!

نزل عم محسن من السيارة، يرتدي جلباب أبيض ناصع يحكي عن أناقة رجل قضى نصف عمره في شرطة البحث الجنائي بدولة الإمارات. كان من أوائل مؤسسيها. سلّم على بحنان أبوي، كأنما يتفقد ابنه الغائب بعد غياب الأعوام، وسأل عن صحتي، وكأن صوته يحمل شيئا من طمأنينة الوطن رغم كل شيء.

طمأنته أنني بخير ترجلت جيهان وشاهيناز من السيارة، فاخترق صمت المدينة الريفية صوت السلام ولهفة السؤال عن

الصحة: -

– أنا كويس والله، الحمد لله...

وقفتُ خجلاً، مترددا... أأدعوهم للدخول إلى هذه الغرفة التي ما عدت أطيق رائحتها، أم نقف هكذا في الشارع وأحاديثنا تتطاير مع هواء المدينة نحو أطرافها؟

حسمت أمري بدعوتهم للدخول. لكن عم محسن صرّح بحسم لم يحتمل النقاش: - نحنا حنسوقك معانا!

اعترضت بلطف، متذرعاً بعملي في الصباح. فضحكت شاهيناز وقالت ساخرة: – غدا الجمعة يا عثمان.

وقفت مشدوها، قبل أن يسحبني أحمد برفق نحو الغرفة: – يلا يا زول... خذ حاجتك، الحجة من الآن بتجهز لفطور جمعة كاارب، وأنت ضيف الشرف!!!

استسلمت، رتبت حقيبتي الصغيرة، وضعت فيها ملابس وجلابية لصلاة الجمعة انقسمنا جزء في سيارتي، وآخر مع أحمد، وتحركنا نحو صلالة.

في الطريق، حكى لي عم محسن عن ثمريت وكيف تُشبه السودان، ثم امتد الحديث إلى السلطنة، بنيتها التحتية، طيبة أهلها، وادب شعبها. وحين لاحت لنا أضواء صلالة من علُ، قال وهو يشير إلى السفح: -دي مدينة تمسك قلبك، وتخلي الوجع يوقف شوية..

تحدث عن قريته ناوا في شمال السودان، مدينة صحراوية تُشبه في صمتها ثمريت سألته مازحا: – ناوا دي... الكانوا منها سحرة فرعون؟

فضحك ضحكة عميقة، وأشار إلى ان اتجنب شاحنة تسير أمامنا بتؤدة وقال: -

-في كتير يقولوا كدا. رغم إني ما عشت في ناوا طويل، لكن الحكايات أصبحت جزء من الذاكرة الشعبية.

حين وصلنا إلى منطقة قيرون حيرتي، لفحنا ضباب بارد كثيف، ضغطت على دواسة المكابح وأبطأت السرعة الرؤية تلاشت، لم يبقَ منها إلا أقل من عشرة أمتار قلت لعم محسن: -

المنطقة دي باردة طول السنة، في ديسمبر ويناير ممكن توصل الحرارة ٥ درجات.

هز رأسه بإيماءة متفهمة وقال: - زي جبل مرة... لكن جبل مرة أخضر دائماً.

وصلنا أخيراً كانت الفيلا في حي السعادة، أحد أرقى أحياء صلالة أوقفت سيارتي، بينما أوقف أحمد المرسيدس وترجل، تركت المحرك يعمل لبعض الدقائق حتى يبرد نزول الجبل. عندما أطفأته، نزلت بصحبة عم محسن.

كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة والربع فجراً دخلنا

الفيلا، وكان جمع من الأهل في استقبالنا. على وجوه والدة جيهان ووالدة شاهيناز ظهرت علامات القلق، ما لبثت أن انحسرت حين جلست بينهن، وابتدأت الأحاديث وسط ضجيج الأحفاد.

شربت كوب عصير، ثم اختفت جيهان وشاهيناز. وظهرت آسيا، تجر حزنها الثقيل كطرحة زفاف منسية بيضاء وطويلة، تمتد خلفها بثلاثة أمتار من الصمت، سلمت على وعلى وجهها برود تمثال شمع، عيناها جافتان من كل بريق حزنت لها.

قال لي عم محسن إنها آثرت الجلوس معهم، بدل أن تسكن وحدها، نظرت إليها، وقلت في نفسي:

بعض الحزن يُعاش جماعيا، لا لكي يخف، بل لأن الوجع حين تتقاسمه القلوب، يتحول من لعنة إلى دعاء.

كانت آسيا تجلس إلى طيف لم يبرحها بعد، تحمل في جسدها ثلاث أرواحٍ صغار، وفي قلبها رصاصة زمن لا يعود، أما شاهيناز، فقد كانت ترتب الأطباق على مائدة العشاء وكأنها تخفي بين الصحون مشاعرها التي لا تجد لها مكان، وعيناها تتسللان نحو أطفال آسيا وجيهان بنظرة تختلط فيها الحيرة بالحسرة، جسدها يصرخ في صمت، وروحها تئن على أعمار قضتها بين الكتب، تبحث عن نجاة فكرية من تجربة عاطفية لم تبدأ.

جيهان، التي كانت في يوم ما مرآة للفرح الطفولي، باتت

اليوم تُخفي انكساراتها تحت طبقات من المساحيق، كمن يحاول طمس شقوق الجدران بطلاء لامع لا يدوم.

كنت أتنفس روائح اللحم المشوي والفول المغطى بزيت سمسم سوداني وخبز طازج مختلط بريحه طعمية، شعرت أنها تناديني بعد صوم طويل عن طعام منزلي، عشت الفترة الماضية على وجبات باكستانية متشابهة، خالية من الدفء. حاولت أن أعتذر بلطف، ولكن هيهات. قبض عم محسن على يدي كأب يأخذ ابنه إلى عشاء عائلي لا يُرد.

جلست، ومددت يدي نحو الطعام بعفوية متعبة، وذكرياتي تنهال أمامي كما تنساب صلصة على أطراف الصحن قال عم محسن وهو يملأ لي الطبق:

– أنت عارف يا عثمان يا ابني، ناوا دي فيها من القصص ما يملأ رواية... مثل رواياتك بالمناسبة، قرأت روايتك الأخيرة.

رفعت رأسي نحوه، وفي الخلفية صوت حاجة نور والدة شاهيناز، تحثّني على الأكل وتضع قطعة دجاج كبيرة أمامي ليتها علمت كم أتحاشى الدجاج، خاصة في العشاء. ابتسمت بخجل وقلت: – نعم... أنا بأكل، خالتي...

ثم التفت نحو عم محسن: - كيف لقيت الرواية؟

قال بهدوء: -جيدة، لدي ملاحظات صغيرة... كتبتها لك. نناقشها بعد العشاء.

قاطعتنا شاهيناز، بنبرة جدية وبريق خافت في عينيها: - تأثرت بها جداً، يا عثمان.

لم أعرف أن كانت مجاملة أم شعور حقيقي منها ... لكنني فضلت الصمت. فبعض الردود تُقال بالصمت.

انقضت الليلة سريعا، بصحبة الضحك، واستحضار الأيام، ومحاولات جيهان المتكررة في رسم صورة عن علاقة قديمة كانت، وربما لم تكن بيننا ابتسمتُ بتلك الابتسامة التي ترتدي الحياء واللايقين، بينما تتبادل شاهيناز وآسيا نظرات تُصادق على رواية جيجي، أو ربما تكذبها بهدوء النسوة، في النهاية رافقني أحمد إلى غرفة قريبة من الصالون، وهناك، تحت دفء اللحظة، خلعت عني عباءة التعب، واستسلمت لنوم عميق كأنني ألتقي فيه الوطن من جديد.

ناوا جزيرة الجن

لم يكن صباح الجمعة عاديا، كنت أتقلب على السرير مع صوت الأذان الأول ينساب مثل نداء من الزمن القديم. فتحت عيني بتثاقل، متسائلا: -

- أين أنا.....؟

استغرقني الأمر لحظات حتى تبيّنت ملامح الغرفة وارتدت إلى ذاكرة الليلة السابقة، كأنها فيلم عُرض قبل نومي مباشرة، صوت أحمد الخارج من الحمام أعادني للواقع: - يلا يا حبيبنا، الجامع قريب من البيت وأشار ناحية الوصف الجغرافي له.

تهيأت على عجل، والتحقت بهم إلى صلاة الفجر، بعد الصلاة، جلست أنا وعم محسن على شرفة الفيلا المطلة على الحديقة، نقرأ سورة الإنسان كان كل شيء ساكنا، كأن الشرفة تصغي معنا، وكأن الجدران تهمس بدعاء مازال معلقاً من الليل.

رائحة القهوة تسلّلت إلينا من المطبخ كدعوة دافئة للحنين، وصوت حاجة فاطمة كصوت الوطن إذا انكمش في حنجرة أم حين تنادي: - الفطور جاهز يا أولاد.

جاءت تحمل عدّة الشاي، تسبقها ابتسامتها، من خلفها أطلت شاهيناز كأنها قادمة من مشهد لم يُكتب بعد في رواية عشق شرقية، ترتدي بيجامة وردية بلون الخجل حين يُلامس الخدود، وقد تناثرت على قماشها رسومات كرتونية، كأن الطفولة تأبى أن تُغادرها رغم نضج الأنوثة الفاتن، قوامها طويل كنخلة تنامت على ضفاف الحلم، تمشي وكأن الأرض تفرش خطاها بالياسمين، فيها بهاء نجمات بوليوود، وسحر نساء الشمال الروسي حين ينسج الثلج ملامحهن بنعومة الجليد، ولكن لشاهي دفءٍ من نار وحرير.

قمت محاولا المساعدة اشارت لي حاجة فاطمة بالجلوس والعم محسن يضع المصحف جانباً وضعوا عدة الشاي والقهوة وبعض السندوتشات على المنضدة امامنا جلست حاجة فاطمة وصبت قهوة زوجها، شاهي كانت بشعرٍ منكوش نصف نائمة، لمّت شعرها إلى الخلف وجلست على الأريكة المقابلة وسألتني بشيء من غنج: - ح تشرب قهوة ولا أصب ليك شاي، عثمان؟

قلت مبتسماً: -قهوة.

بدأت لي شاهيناز في تلك اللحظة كزهرة منسية على كنبة المساء، تحمل في عينيها آثار حديث البارحة، مبللةً بالدمع، مملوءة بالحنين ، اخذت انظر اليها خلسه وهى تصب لي القهوة كان وجهها رغم أن الزمن قد هبش منه كما تهبُّ الريح على سطح بركة ساكنة ما زال يحتفظ بفتنته، كلوحة لم تنتهي،

تخدع العين بجمالها الناقص، وتُغري القلب أن يتمها بالخيال ،في عينيها شيء من ليل لا يُفسر، ليل فيه وعود وسؤال ، ليل يُغري بالبقاء، وإن ضَل السبيل ، اخذت من يدها فنجان القهوة وانا انظر الى صلالة كأنها تغسل صباحها بندى الضباب، وتربّت على الشرفة بنسيم رطب وتهمس لنا جمعة طيّبة لكم، يا من تعانقون الحياة رغم ما مرّ.

أسيا وحدها بدت عالقة في حدود الحلم كانت بحديقة الفيلا ترش الزرع، غارقة في شرود ثقيل الماء يتساقط من يدها على الزهور كما لو أنها تسقي وجعها، لا ملامح لها، فقط حزن كثيف يفيض من عينيها، جعل عم محسن يتمتم: -أسيا دي... بتشبه في جمالها امنه الحلبة

نظرت إليه باستغراب: -من آمنه دي؟

رجع بظهره إلى الوراء، أخذ رشفة قهوة ثم قال: - دي فتاة من ناوا... خطفها الجن بالخطيئة

شهقتُ، وفغرتُ فمي، مع دخول جيهان الينا جلست بالقرب منى اخذت كوب من الشاي قالت وهي تضحك: - بابا الله يرضى عليك، ما تبدأ لينا صباحنا بالخرافات دي.

أشرت لها أن تتركه يكمل، شيء ما في أراد الاستماع.

قلت بشغف: - خطفها الجن؟ كيف يعني؟

عندها ارتسمت على وجه عم محسن ملامح الجدية كأنه

يعيد ارتداء الزمن على ملامحه نظر باتجاه زوجته التي انسحبت للمطبخ ثم قال بصوت خافت يحمل وقار التجربة: -

-سوف أحكي أليكم أغرب قصة سمعتوها، كنت شاهداً عليها.

انضمت إلينا أسيا، وجلست شاهيناز إلى جواري، كما لو أنها تتحصن بي من رعب الحكاية القادمة الساعة كانت الثامنة وخمس دقائق صباحاً عندما بدأ عم محسن يحكي: -

قصة جزيرة ناوا... أرض الجن وآكلة لحوم البشر...

كلنا أصغينا إليه بشغف... باستثناء جيهان، التي بدا أنها تحفظ القصة عن ظهر قلب، أو لعلها تؤلف نسخة أكثر غرابة داخل رأسها.

العودة

في قلب النيل الهادر، حيث تتشابك أنامل الماء مع أصابع الرمل، تنبثق جزيرة من ذهب الطمي وسرّ الحياة، هناك في شمال السودان، حيث يحتضن النيل قطعة من الجنة أودعها الله بين موجتين.

جزيرة ناوا تعني جزيرة الروح وتُكنى بعروس النيل ويقال ان الاسم مشتق من نواه البلح، تلوح من بعيد كأنها زورق قديم رسي على كتف الزمان، يتنفس على مهل، وفي عينيه بقايا من حضارة النوبة وحنين لأغنية نائية من زمن الممالك. تحفّ بها القيزان الرملية مثل حراس صامتين، تهمس في الليل بأغاني الريح وتحكي عن قوافل مرت وهجرات صمتت بيوتها نصفها من الطين المجبول بالذكريات، تلبس لون الأرض، كأنها خرجت من رحمها لتعود إليها بلا عناء. ونصفها الآخر من الطوب الأحمر الصامت، يواجه الريح بحرارة الشمس وذاكرة من شقاء الغربة، السقوف من جريد النخيل، والأبواب مثل صدور الأمهات، تفتح لكل غريب دون سؤال، الناس هناك

ليسوا مجرد سكان، إنهم أبناء النيل والنخلة، عرقهم يسيل في الأرض كما تسيل الجداول، وأياديهم تنام على جدائل الزرع.

العلاقة بين الإنسان والأرض في تلك الجزيرة علاقة عشق صوفي، كل حفنة تراب تحفظ اسم من زرعها، وكل نخلة تعرف من سقى عطشها الأول النخيل ليس مجرد شجر، بل أعمدة بيت الذاكرة، يروي التمر من خلال حلاوته قصة الجدود حين كانوا يحرثون الأرض بسواعد مغمسة في العزم

الإنتاج فيها ليس فعلاً اقتصادياً فحسب، بل طقس من طقوس البقاء، كل بيت له بستان صغير كأنه محراب، وكل عائلة تملك رقعةً من النيل تصلي لها كل صباح وتغسل فيها تعب النهار.

أما الإنسان، فهو طين وتمر وماء وجهه ممشوق مثل أغنية نوبية، وعيناه واسعتان كأنهما تحملان نهرين من الصبر. علاقاتهم كحبال الطين المجدولة، مترابطة، لا تنكسر، وقلوبهم مفتوحة مثل أبوابهم. هناك لا تسأل عمن هذا فكل الناس إما عمّ، أو خال، أو ابن خالة غاب في الديار.

علاقاتهم بالحكومة ،كأنهم يكتبون للحاكم على ورق البردي ويرسلونه في زجاجة عبر النيل، ردودها نادرة، تصل بعد موسم أو لا تصل، ومع ذلك لا يحملون في قلوبهم ضغينة، بل يبتسمون بسخرية ناعمة، ويقولون: - نحن نحكم أنفسنا بالمحبة، لا القرارات، تروي بعض الأساطير أن السحرة الذين

استدعاهم فرعون لمنازلة نبي الله موسى في يوم الزينة، كانوا من ناوا أو أن بعضهم قدم من هناك، من تلك الجزيرة التي عُرفت في الزمان البعيد باسم نِنيوا، هناك لا يسير الزمن كما نعرفه، بل يتهادى كدوران الساقية القديمة، ببطء مهيب، في دائرة لا تنكسر، كأنه طقسٌ مقدّس تُعاد فيه اللحظة مرة بعد مرة دون كلل أو نهاية.

لم تكن ريح الجزيرة تهب كما عهدها محسن حسن حسين، ضابط الشرطة الجنائية الذي عركته الغيابات، عشرون عاماً مرّت، لكنها لم تمحُ رائحة الطمي التي تعانق أنفاس الغروب، ولا ذاك الطنين الغامض الذي يملأ المساء على ضفاف النيل.

جاء وفي يده حقيبة قديمة، وفي صدره أسئلة لم تجد بعد طريقاً للخروج لم تتغير القرية كثيراً، فالبيوت الطينية ما زالت تحتضن حكاياتها، والأشجار القديمة تهمس بلغات لا تُفهم إلا بمن عاشوا في رحم هذه الأرض ،ومع ذلك كان في الجو ما يبعث على القلق، شيء خفيّ يجعل المكان كأنه يختبئ من نفسه.

كان محسن عائداً لا شوقاً، بل هرباً من قدر غامض. تورط في محاولة انقلابية فاشلة شارك فيها مع بعض صغار الضباط، فصار اسمه ضمن قائمة من طالتهم شبهة العِصيان. لم يكن يدري لماذا فتح ذاك الظرف الغريب الذي وصله يوم الانقلاب

ظرف كُتبت عليه كلمات مرتعشة، بخط رديء على ورقة ممزقة:

ارجع إلى ناوا، هناك من ينتظرك. فقط أفلتَّ من الإعدام، خطايا النيل لم تنتهِ بعد.

من كتبها؟

وكيف عرف مصيره قبل أن يُكتب؟

ظل السؤال ينهش دواخله، لكنه خضع لقوة تشبه الحلم أو النداء القديم، فحزم روحه المرتجفة في حقيبة من خوف، وسار شمالاً إلى الأصل، إلى النقطة التي بدأت منها الحكاية.

كانت العودة إلى ناوا كخروج جنيّ من قمقمه ليست نزهة على صفحة النهر، بل انبعاث للوجع، واستحضار لذاكرة تشبه العطر العالق في نسيجٍ مُهترئ.

عندما لاحت الجزيرة من بعيد، بدت كأنها سفينة منسية رست على النيل، يلفّها سحر رمادي لا هو ضباب ولا دخان حتى النخيل كانت تميل كأنها تتهامس: - أهو العائد أم شبحه؟

استقبلته الأرض وكأنها تتذكره جيداً، أبواب البيوت من طين كأنها عيون لم تنم، وجدران تنبض بأسماء مضت، وأخرى تنتظر.

في الجو بخورٌ عالق، كما لو أن أحدهم كان يُخرج الأرواح

أو يستدعيها، في كل زاوية ظل يفر، وصوت هامس يروي عن غائبين وعن امرأة عرفت ثم صمتت إلى الأبد.

لم تنسَ الجزيرة لكنها تتقن الصمت، تماماً كما تخبئ السماء رعدها قبل العاصفة.

لم تكن عودة محسن مجرد هروب من مصيرٍ مجهول، بل كانت فتح صفحة من كتاب نُقش بالدم، لا بالحبر. سردٌ مُحرم كُتب بيد ارتجفت حين كتبت، وأُعيد فتحه بقدم لم يتوقف فيه البحث عن خلاص ما.

أول من استقبله كان بخيت ود سعدية، شاباً في أول العشرين، يمشي كمن تعلم السير في حلم قديم لا يُحسن الكلام ولا الفهم كما يُفهم، لكن في وجهه صفاءٌ يشبه المرآة التي لم تُعلق بعدُ على جدار الحياة. لم يكن بخيت يعرف معنى كونه مختلفاً، ولم يكن بحاجة إلى أن يعرف، ففي عينيه لغةٌ أصدق من الكلام.

لم يكن شيئاً سوى أنه بخيت ود سعدية، كأن الحياة مرّت به خفيفة الخطى، ولم تترك في دفاترها إلا الاسم، كشاهد على عبور قديم.

في تلك الليلة، حين كان الضابط محسن يقترب من تخوم حي ناوا كتمار، أحد أحياء الجزيرة العريقة، كان الليل قد بسط عباءته على المكان، لا ضوء إلا ما انسدل من نوافذ البيوت المرتجفة، والريح تعبر كعجوز تنشر حكايات من زمن غابر،

والأشجار تميل كأنها تصغي لسر دفين، حتى الكلاب كفّت عن النباح، وكأن شيئا ما لا يُرى مرّ من هنا.

ظهر بخيت فجأة، كأنه ظلّ خرج من خاصرة العتمة، يسير بخفة من لا يعرف وجهته، بلا كلمة، واقفاً عند حافة الطريق، يحدق في القادم بعينين مثل عيني غزال أضاع القطيع، كأن روحاً بريئة وجدت في هذا الغريب صدى لعبة قديمة، تبعه بخطى عفوية، يلوّح له أحياناً ويضحك فجأة دون سبب.

لم يكن يدري إلى أين يسير، ولا من هذا الذي يمضي أمامه، لكنه تبعه كما تتبع السنونو أنغام المطر، وخوف الليل لا يفرّق بين من يعلم ومن لا يعلم، بدا بخيت، في تلك اللحظة، كطفل يسير في حلم لا يخصه، ولكنه موعودٌ بأن يستيقظ على قلب يحتضنه.

اقترب منه محسن بترفق، أراد أن يلاطفه، لكن بخيت أطلق ساقيه للريح، يصرخ بصوت غريبٍ أقرب إلى مواء، فتلبد المشهد بالدهشة، تمالك الضابط نفسه، ومضى متجاوزاً غرابة اللحظة، يتحسّس طريقه نحو بيت جدة.

عند منتصف الحي، في المسيد، التقى جمعاً من الأهالي، يجلسون فوق كثبان رملية، كأنما ينسجون صمتهم من قطن المساء. حيّاهم، فلم يعرف أكثرهم، ولم يعرفوه. تقدّم نحو عمّه صالحين، الذي رغم السنين، ظلت فيه ملامح الزمن الأول، شاربه الكث، وبنيته القوية، ووجهه الذي حفرت فيه الذاكرة

طُرقاً لا تُمحى.

قال: السلام عليكم، عمي صالحين.

فنهض صالحين فجأة، كأنما الزمن تراجع عنه، ونظر إليه بدهشة، وقال بتردّد:

– محسن؟... محسن ود أخوي حسن؟

تعانقت الأذرع، وتصافحت الأكفّ، وانسكبت دموع الشوق على ليلٍ صار له طعم المطر بعد الجفاف. بعدها تتابع السلام، وتكرّر السؤال من هذا الغريب القادم من الخرطوم؟ وتعرّف الجمع على محسن، على أولاد العمومة، وعلى من تقاطعت معه الملامح دون أن يُدركها الاسم

عشرين سنة، يا محسن، من آخر مرة جيت فيها البلد...؟

قالها عمه كعتب يكسوه الحنين.

فأجاب محسن بخجل:

– أيوة، والله، زمن طويل، يا عمي.

– وكيف اخوانك في الخرطوم؟

– كلهم طيبين... وما في زول يعرف إني جيت هنا.

بدأ الإرهاق يكتب ملامحه على وجه محسن، وتعب السفر يتسلّل إلى جسده، أخذه عمه من يده، وسُري، ابن

العم، حمل حقيبته. ومضوا إلى البيت القديم، إلى حيث وُلد قبل خمس وثلاثون عاماً من حنين.

حين وطئت قدماه الدار، كان الليل قد فرش أقدامه كشيخ يتوكأ على العتمة، تغيّر البيت صار الطين إسمنتاً، والسقف من الزنك، لكن روح الجد والجدة ظلّت ترفرف في الزوايا، وعلى الحصير المجدول بخيوط الذاكرة.

وقف محسن على العتبة كمن عاد من مدن النار، يطلب الدفء في بيت من الطين، وفي دفء الذكرى وهو الهارب من زلزال الخرطوم، لا يحمل سوى ظلّ حكايته، وحلم صغير بأن تكتب الحياة صفحة جديدة بلا دماء.

في الباحة تحت ظل نخلة متعبة، استقبلته وجوه العائلة كما تستقبل الأرض أول المطر بعد طول غياب. وتعالت الأصوات بالترحيب، واكتملت القصيدة، أنتشرت عمّاته وبنات عمّاته في فناء الدار كأوراق شوق قديمة، وما إن وقعت أعينهن عليه، حتى انفرط عقد الصبر، واندلعت الدموع كسيول نحت من سدود الصمت، ثم تهادت الأجساد نحو حضنه كأنّ الذكرى نفضت عنها الغبار.

تقدّمت إليه فاطمة، ابنة عمه صالحين واخت سَري الكبرى، تلوّح بطرف ثوبها المطرّز كما تلوّح الحقول لغائب تأخر ضُمَّ إلى القلب قبل أن تُمد له اليد، وكأنّ الجراح لا تُشفى إلا بمعرفة من قرأ الابتسامة ذاتها في وجوه الطفولة.

لم يكن لقاء، بل عودةُ روح إلى رحمها الأول، إلى حيث تعرفك الجدران، وتهمس لك المواعين الخزفية بأغاني المسيد ونقش المحايات.

دخل محسن الصالون الكبير، حيث مكث الجد لأعوام مع المصحف ولوح العارفين، وجلس على (العنقريب) المجدول بحبل الليف كأنه نغمة عود حزينة تبحث عن انتماء ضائع في فرقة تحاول عزف لحن الوطن العائد. والريح تضرب النوافذ كعرافة عمياء، تهمس في أذنه:

ما رجعت لتسكن... بل لتُفتن، فالدم لا يجف في جزيرة تسكنها الذاكرة.

تجمع حوله الجميع بعدما غسل جسده بماء دافئ من كانون قديم، وحكى لأعمامه عن الخرطوم، عن حلم جُرّد من عباءته، وعن كيف انسحب متخفياً بعد فشل انقلاب هاشم العطا، هرب من قبضة الملاحقة، حين صار اسمه في قوائم لا تعرف الرحمة.

قطعت حديثه حركة عمّته الكبرى ستونا، تجر قدميها بإصرار الضيافة، لتضع أمامه صحن قراصة التمر وكورة من حليب الغنم. شعر وكأنه يلتهم طمأنينة الطفولة نفسها، وأنّ الطعم يرشح من ذاكرة كانت تنام قربه على نفس الوسادة وبحنان يمتد كظلّ نخلة في موسمها، قالت ستونا:

-رجعت يا وليدي، رجعت والقلوب لسه بتدق باسمك.....

كان الشحن قريبهم الغامض يجلس في الزاوية، عابساً كديك يصيح في ليل بلا نافذة، فقطع عمه صالحين الصمت:

-هاشم العطا لعب بالنار يا محسن يا ولدي، واللعب بالنار... نهايتو حريق، وانت حرقت جناحك؟

أجاب محسن بصوت مثقل:

-الحلم كان كبير، يا عمي كنا نريد تصحيح المسار، لكن لما اسمي طلع في الكشف، بقيت كأنّي ماشي فوق ظهر تمساح أى خطوة غلط ممكن تكون النهاية.

مسحت ستونا دمعة لامعة بطرف توبها، وهمست:

– الحمد لله إنك رجعت، وما بقيت حكاية في صحيفة...

غرق الليل في جدران الدار، كأنه يصغي لحديث فيه العتاب محبة، وفيه الصمت ألف حكاية.

وكأن الصالون، بكل تصدعاته وعتقه، كحُضنِ وطنٍ أُرهق من الحلم، واتّسع لخيباتٍ لا تُعد.

والريح فوق رؤوسهم، كأنها أنين وطن يتهجّى اسمه بين الغبار. قال درّار، أصغر الأعمام، وهو يلوح بعصاه كمن يطرد الأشباح:

-سودانا ما نقصو الرجال، لكن المشكلة في السروج المكسّرة، كل ما يجي فارس، يطيح ويسحب معاه حلم.

ضحكت ميّاسة، عمته الصغرى، ضحكة ممتزجة بالخذلان، وقالت:

– من زمن الاستقلال لي يومنا دا كأننا بنبدّل في شراشف الوسخ، كل يوم نحلم بالنظافة، ونصحي على وسادة مليانة دم

هزّ عمّه صالحين رأسه، وتمتم كمن يسترجع تعويذة من زمن الغيب: -

-السلطة في السودان يا وليدي، زي عروس الجن من يلمسها، يا يُفتن يا يُخطف.

رمقهم محسن بعينين احترق فيهما العُمر، وقال بصوت يشبه صفير قطار غادر المحطة ولم يعد: -كنا نحلم بجمهورية تسع الجميع، لكن الساسة في البلد دي ذي لصوص المقابر، ينبشوا عظام الناس ليبنوا بيها قصورهم

ربّتت ستونا على يده، كأنها تطبب وطناً بأطراف أناملها: -الحمد لله على سلامتك، البلد لسه واقفة... حتى لو وقفت على عكاز.

ساد المكان سكون أثقل من الليل، وكلّ منهم يقلّب في داخله جريدة من الماضي، عنوانها واحد: الاستقلال جاء على

عكاز، وتعثر في أول حفرة.

قال درار وهو يحدّق في سقف الصالون، يشخص دخان الطلح بحثًا عن خريطة وطن: –

-قلنا مايو ميلاد.. طلعت زغرودة يتيمة في عرس لم يأتِ عريساه. كل زول فينا، عاش عمره يلملم فتافيت وطن ما اتلم.

ميّاسة، بنغمة تراجيديا ناعسة، قالت: - مـــا تزعل، يا محسن. يا ود أخوي السودان مولود تعبان، ورضع من صدر مكسور. جيل وراء جيل، يدفن الحلم ويزرع الخيبة.

ضحك صالحين ضحكة قصيرة تطرد غصة قديمة: -العساكر كلّهم فاكرين نفسهم موسى، والعصا بتتحول في يدهم سيف، يقطع الحلم ويقول ده أمر سماوي. وقلت ليك الكلام دا يوم جيت الخرطوم وحكيت إنك ناوي تدخل الشرطة.

أجاب محسن بصوت منقوعٍ بالحسرة: - صدّقت يا عمي مشينا مع العطا نحلم بزمن يفرح، لكن الزمن كان أعمى، والعطا شدّنا نحو حافة ناعمة الحافة عميقة الهوّة، الا حفرة النميري أعمق

همهمت ستونا، وهي تحدّق في ملامحه محسن كأنها تقرأ على وجه خارطة هروب مخفية: - الوطن ما بموت، يا وليدي... لكن الحنين هو البموت فينا، موت بطيء زيوا وذي

الغياب.

اغمضت عيناها وواصلت حديثها بعد ان نظرت الى محسن: -

-اتمدد يا ولدي اتمدد اخذ ليك راحة تبرد تعب قلبك قبل الصباح ما يجي

أشارت للجميع أن يتركوه يرتاح، غادروا بهدوء، وظلت ستونا، تمسح بزيت السمسم على رجليه وكأنها تطرد تورمهما بسبب المشاوير التي زكرها عند الهروب. ثم اخذت غطاء وفردته عليه، وغادرت وهي تمسح دموعها بصمت.

رقد درار على العنقريب الآخر، عَم في الصالون صمت لا يشبه سكون المراقد، بل كأنّه اتفاق غير معلن بأنهم أحفاد وطن رضع من ثدي الحروب، ونشأ على فطام الخيبات. وحدها الريح كانت تواصل نواحها، كأنها تحكي بقية الحكاية بلغة لا يسمعها إلا من ذاق مرّ العزلة، وطعم السُلطة من بعيد، درار نفسه كان قد فصل من جامعته في زمن عبود، وابتلع خيبته وعاد إلى ناوا، حاملاً في قلبه ما يشبه مرثية الزمن العالق.

كان الليل قد هدأ، كما لو أن اللقاء أنهى دوره، وبقيت الحكاية تتنفس بهدوء. محسن تقلّب فوق عنقريب الجد، المربوط بحبال الليف، وتحته الحصير الذي ما زال يفوح برائحة النيل القديم. فوقه مصباح كيروسين، يرقص ضوءه على

الجدران، كأطياف لأشباح الزمن.

استلقى يُصغي لأنين الأرض، لحشرجة الجروف، لصوت بومة تنعق في نخيل القرية، ومواء قطط تبحث عن صدرٍ يشبه الغياب. كان ليل ناوا صلاةً مكتومة، تسبّح فيها الأشجار، وتهمس الصخور بأسرارٍ لا تُقال.

لم تمض لحظات حتى سقط في نوم عميق، بعد أن سمع أنفاس درار تستقرّ بجانبه، كأنها إيقاع حياة قرّرت ألا تموت.

الخطيئة ثمنها الدم

في فجر رمادي اللون، نهض محسن مبكراً على صوت دجاج عمته ستونا، وكأن الأرض نفسها توقظ من تحبهم، سار نحو المسيد، صلّى الفجر على عجل، يخاف أن يختلط بأهل الحي، فاليوم لا مكان للحديث ولا للسلام، مزاجه هشّ كأغصان الصفصاف، عاد بخطى مسرعة إلى البيت، فوجد قراصة القمح بالسمن والتمر بانتظاره، وشاي الحليب يفور في فناء تطوقه الشمس بخيوطها الأولى،و ستونا ترصّ الأكواب حول أبناء اخيها شعرها معقود بكسل، ووجهها صاف كنسيم الجروف، رغم ما به من عناء، تبادل معها نظرات قصيرة ثم جلس بالقرب منها تحت النخلة التي تشبه ذاكرة الجزيرة، حاول أن يستجمع فتات الطمأنينة وسط ركام الخيبات الذي اتي به من الخرطوم. الهواء مشبعاً برائحة الطين الناشف والخوف المتخثر في زوايا الكلام.

سألته عمته بصوت خفيض: - عدّيت ليلتك كيف؟ أومأ برأسه: نمت كويس، الحمد لله.

صمتت قليلًا، ثم قالت: سمعت بموت البدري ود همد؟

نظر إليها بدهشة: البدري؟ الولد السمين، أخو عابدين؟

ردت بحزن:

- أيوة يا وليدي، صغير... بتكون شفتو، جاكم في الخرطوم.

قال مؤكداً: أكيد شفتو، نزلوا عندنا، قالوا ماشين للحكيم. كان بياكل بشراهة، وملامحو فيها براءة تخوف، كأنو قلبو بيشيل الدنيا كلها. مات متين؟

أجابت بحزنٍ مطبق: قبل جيّتك بيومين، ولازم تمشي تشيل الفاتحة مع عمك همد بكون عرف بجيتك، لكن عاوزاك تعرف... موتو ما كان عادي. لقوه مشنوق في قيف النيل، معلق في نخلة من نخيل أولاد محمد صالح

جملتها زحفت اليه كما يزحف الضباب فوق الحقول، فهم أن البلاد لا تبارك بقائه للراحة، بل تدعوه ليرى ما صار عليه المكان، ولربما ليكون جزءاً من شيء أكبر من نجاته الخاصة، وربما ليحمل عبئاً لم يختره.

تناول فطوره بصمت، والنسيم يربّت على وجهه. لم يشعر بمجيء فاطمة إلا حين سلّمت عليه بابتسامة متوهجة. ردّ السلام شارداً، وعيناه تقتفيان خطّا خفيّ يربط رسالة الخرطوم بجثة مشنوقة قرب النيل.

وفجأة، دوّى صوت درار وهو يتحدث مع صالحين بانزعاج قادمين من المسيد، دخل درار الحوش كريح حارقة

تهب من جهة الغرب، صوته يسبق خطاه وهو يقول بصوت حاد: -

الجزيرة صحّت تأني على دم! جاهين لقوه مربوط زي الخروف جوه دكانو، وبسلك مكتف ومذبوح ودمو مصفي في صفيحه !

نهضت ستونا مذعورة، تتمسك بطرف ثوبها تصيح: - يا ساتر يا رب .... الدم بقي ينساب في شوارع ناوا زي السيل، منو قلبو ميت كدا؟

همس محسن: - جاهين دا منو؟

ردّ درار وعيناه مشبعتان بغبار الحي: - رجعتك جات في زمن الدم، يا ود أخوي. اليومين ديل، كل زول بيرجع ناوا، بيرجع بسؤال.

تجمّع الأهل في الفناء، وفاطمة سارعت بإدخال الأطفال إلى البرندة الكبيرة.

وقف درار وسط الحوش، وبدا كأنّ الكلمات تخرج منه أكثر مما يقولها: -جاهين دا زول غريب ما من ناوا فيهو عرق مصري ولا تركي لكن تحلف تقول يهودي بس جاء فجأة ومعاهو قروش، اشترى، بنى، واتزوج فوزيه بت الأمين، وبقي من أعيان البلد... كلام كثير أندس في صمته، لكن النهاية كانت قاسية.

قاطعته ستونا بحدة: - اتلهي يا درار، الراجل دمّو ما نشف

وانت بتأكل في لحمو!!!

أضافت فاطمة، وهي تخرج من الظلّ إلى الفضاء: - دا تالت واحد يموت في شهر... في شي ما طبيعي، في شي بيحصدنا بدون رحمة.

اخذ محسن يستمع إليهم كمحقق قديم يفكك الوجوه والأصوات والظلال بعد ان جلس بالقرب منه عم صالحين واضعا يده على خده في حيره دخلت ميّاسة مسرعة، قالت بارتعاش:

الجزيرة بقت تئن زي امرأة في الوضوع، والموت داير فينا.. دا ما حقد، دا موت مدبر، الدم دا ما شهوة قتل، دا فن... والموت بقي بيختار وجوهنا واحد ورا التاني.

نهض صالحين، عدّل من عمامته وقال :- يلا نمشي، نلحق الناس عند دكان جاهين، ونستر الميّت. الكلام بعدين.

نهض محسن يتبعهم، وصوت الرسالة يتردّد في داخله: -

ارجع إلى ناوا، هناك من ينتظرك. أفلت من الإعدام... خطايا النيل لم تنتهِ بعد.

الغموض يملأ الهواء كعطر قديم، والحقائق مختبئة تحت وسائد الغبار. هل كل هذه الجرائم خيوط في نسيج تلك الرسالة؟ أم أن ناوا لم تعد كما يعرفها؟

خلفه، تمتمت مياسة وهي تخاطب ظلاً لا تُرى: البيوت الما فيها سرّ، بتبكي برضو... لكن دم جاهين ما بكاء، دا صرخة عدالة تلبّستها الغِلّة.

في صباحٍ لم يكتمل بياضه، كانت الجزيرة كلها في الشارع، رجال ونساء وأطفال، وجوههم كأنها مصقولة بالخوف، صامتة بلون الغبار. محسن كان يمشي بينهم، ماراً ببيوت يعرف جدرانها، وجوه كانت تهتف باسمه في زمن مضى، تتجاهله الآن كأن الحلم الذي خذلوه يسير معهم صامتاً، ونخلة هرمة تهمس في خاصرة الريح لنخلة صغيرة: داك محسن... رجع من الخرطوم بعد أن شافها تحترق، لكنه ناسي إنو ناوا ممكن تولّع بلا نار.

عند مشارف دكان جاهين، تجمّع الناس كأسراب نمل وجدت عسلاً مسموماً. رائحة الموت كانت أول من وصل ممزوجة برائحة طحنيه خافتة، كأنها تسخر من فظاعة المشهد الدم سال في الصفيحة كأن القاتل أراد أن يقول: ما سال منك رزق، سال منك ذنب.

السلكُ الذي ربط به المرحوم لا يزال يرن في الهواء كصفارة من غضب ودم. محسن يقترب، الحاجز الأصفر الذي وضعته الشرطة حول مسرح الجريمة يهتز في عينيه كأطراف ذاكرة تُجلد. نسي رتبته، نسي اسمه، نسي أنه جاء هارباً. رأى جاهين ممدداً على بلاط مبتل، جسدٌ مربوط بعناية جزار يقيم شعيرة

خفية، ودم ينساب إلى صفيحة الطحينية. التي وضعت تحته.. والسخرية تنتصب فوق الجثة مثل عنوان مشوّه لعدالة سوداء.

تقدّم خطوة، ثم تراجع لم يكن خوفاً من الدم فهو من أبناء الخرطوم، حيث الدم لا يُجفَف بفعل الساسة، بل خوفاً من أن تُقرأ ملامحه، أن يُعرف، أن يُبلغ عنه ظل قديم ما زال يسير في نعال العسس.

اصطف كغيره من المندهشين، يراقب من خلف نظارته، وداخل قلبه صوتٌ يهمس: لسّاك ضيف... خليك في الهامش، لحدي ما الجريمة تتكلم بلسانها.

رجال الشرطة يتحركون بذاكرة محفوظة كشافات، دفاتر، نظراتٌ سريعة، إشارات، سُحب الجسد كما تُسحب صفحة تالفة من كتاب الله في ركن المسيد. واحد منهم كتب شيئاً وهو يرفع حاجبه، كأن هذا القتل لا يُشبه ما قُتل من قبل.

محسن تجمّد. بداخله شرخ يتّسع:

هارب من سيف الخرطوم، ليجد في ناوا مقصلة أخرى، مقصلة السؤال، مقصلة الدم، مقصلة الذاكرة.

انفضّ بعض الجمع من المكان، لكنّ العيون ظلّت معلّقة على مشهد لم القتل. بدا كأن القاتل ما زال مختبئاً خلف رفّ الزيت أو دُرج النقود، محسن انزوى إلى ظل جدار، مستنداً على ركبته المتصلبة، وعيونه تتنقل بين رجال الشرطة ووجوه

العابرين، بجانبه، وقف رجل نحيل، وجهه محترق بالشمس، وعيناه تقطران حكمة لا تُقال. قال بصوت لا يخاطب أحداً، بل يخاطب ماض مجهولا:

– جاهين... من زمان بحرث في أرض الطمع، وها هو ذا يحصد ما زرع.

رد عليه شيخ بلحية فضية وسعوط بين شفتيه: - لكن النزف في صفيحة الطحينية دا؟ ما ساي... الزول العمل كدا عندوا غرض.

الرجل النحيل بهمس: انت نسيت حكاية ود العجوزة مع جاهين شال دكانه مصدر رزقه؟ ولا قصته مع يوسف لمن كان شريكه شال شقي عمرو بالغش...؟ جاهين تراكمت في راحته أوزار الناس، وبقي ذي الظل المشي على دموع الفقراء.

استدار محسن قليلاً، كأن كلمة في حلقه تنتظر النطق، لكن صوتا داخليا تمهل بهمس:

- لا تفتح باباً وأنت لابس قناع الغريب

شدّ عمامته قليلاً، وأعاد ترتيب نظراته كأنه يموه بها قلقه، ثم همس لنفسه: ذلك الرجل... مات حيث كان يقتات، مثخنا، مستنزفا، كأنما كان قربانا لعهد جديد. ليس موتا عابراً... بل نُبوءة كُتبت بدم.

وإذا بصوت يافع يخترق سكون الحي يركض نحوهم: -

قالوا لقوا رسالة في جيب المرحوم، مكتوبة بخط غريب!

شدّ الخبر أطراف السمع وأرتجف الهواء وتغير وجه الشيخ، أما محسن فاستنشق الصدمة كأنها دخان نبوءة قديمة، بدأت روحة تتيقن أن هذا الموت ليس فردياً... بل سلسلة بدأت تتحرك من جديد

الضجة عادت، ولكنها هذه المرّة أكثر توجساً من الفضول، رجال الشرطة أحاطوا بالمكان، يتداولون ورقة صغيرة، يتعاملون معها كأنها طلسم. من خلف الجموع عين محسن تتفحص، لكن قلبه سبقها، يركض نحو احتمال مُفزع.

قراء الشرطي الورقة بصوت خفيض: -

(من سقى الأرض بالدم، لا يُروى منها... ومن خان العهد، تلتهمه الخطايا... خطايا النيل لم تنته بعد) .

وفي أسفل الورقة... رقم (٣)، بلون الحياة المسفوكة.

عيون محسن اتسعت، كأن النص ضرب قلبه قبل أذنه، ارتجف، عمه درار ظنه قد تأثر بمشهد الدم، لا بما دوّى في داخله.

سأل شرطي آخر، يحاول تبديد الغموض: - الرقم ٣... معناه شنوا؟

لم يُجب أحد، لكنّ الصمت أبلغ من القول كان الرقم

كصفعة خفية، كأنه ترتيب في قائمة لم تنتهِ بعد، محسن سمع العبارة، وابتلعه ظنٌّ غامض

ثم اقترب الضابط من الشيخ صالحين، حكيم الحي، وسأله بتلك الصيغة التي تُقال حين يعجز المنطق: - المرحوم... هل له خصومة مع أحد؟

الشيخ صالحين، لم يُبدِ استغراباً، كأنّ السؤال كان مكرراً في حياته أكثر من مرات الأذان. أجاب بثبات، وعيناه تسبحان في تاريخ الحي: - أكتر من الشعر في راسو... ما خلى زول في حالو، كل زول عندو معاه حكاية، من المزارع اللي انسحبت منو أرضه، لبيع المواد المصرية منتهية الصلاحية حتى الحرامية كانوا بيقولو دا ما زول دا جن.

كان جاهين رجلاً لا يغيب عن العين، ضخم، أبيض مشرب بصفرة، كثيف الشعر بشكل يكاد يرهق العين، كيف يمكن أن يُقيّد ويُذبح هكذا، دون مقاومة؟ لا علامة تشير إلى اشتباك، لا اضطراب في الدكان، ولا خدش في بضاعته. بل كل شيء ساكن كما لو أن الجريمة حدثت في حلم، استطاع محسن ان يصل الى مسرح الجريمة ملاصقاً اعمامه وبعض أعيان الجزيرة، أخذ يتفحص المكان كما يتأمل لوحة سريالية، صفيحة بداخلها دم بشري ساكن ، جسد ممدد على بنك الدكان، وورقة تحمل أثر زلزال.

همس في نفسه كأنه يحفر في التراب: -

ربما غُدر من أكثر من شخص... لكن لماذا يفرغ أحدهم صفيحة الطحنية ويسفك الدم فوقها؟ لماذا تُعاد العبارة القديمة؟ لماذا الرقم؟

رأى الشرطي يضع الورقة في كيس شفاف، يهمس بأمر الإرسال لفحصها. هنا أدرك محسن شيئا مرعبا: القاتل لم يترك جثة، بل يترك أثر، رسالة، كأنو يرسم في خارطة موت بحبر صامت.

وتمتم لنفسه: - أخاف الرقم دا فاتحة عدّ، مش نهايتو.!!!

تفرق الجمع، والوجوه مثقلة بصمت لم تقدر عليه الكلمات. عاد محسن مع اعمامه الى المسيد فقد شارفت صلاة الظهر ساد صمت رهيب داخل زاوية الصلاة لا يُسمع فيه سوى حفيف النخلة التي بدت كأنها تمسح على كتف الأرض وتهمس: لسّا الحكاية في بدايتها

رنين الذباب ينسج فوق السكون شبكةً من الشائعات كعنكبوت لا يشبع، تمتدّ إلى قلب محسن... كأنّ القتيل لا يزال يتنفس.

هكذا اذن بدأ فصل جديد في رواية محسن، حيث لا شيء أكثر خطورة من العودة خصوصا الى جزيرة تعرف كل شيء لكنها لا تقول شئياً

أجراس العودة

الليل، في الجزيرة ينكمش كما تنكمش يدٌ عجوز على مسبحتها، تتناهى همسات الرمل كأن كل حبة تُسرّ إلى أختها بسرّ قديم، لا يُقال إلا للغروب، السماء فوقها ليست مجرد حبر أسود، بل عباءة خاطتها العزلة من نُسج الصمت وتوشّحتها النجوم كما لو كانت عيون الأرواح التي لم تُدفَن بالكامل، تراقب الأرض من فوق دون أن ترفّ.

الريح لا تعوي، إنها تمر كما تمر ذكرى امرأة مهيضة على عتبة خيمة قديمة، لا توقظ نائماً ولا تترك أثرا الا رجفة بالكاد تُرى على صفحة الرمل. البيوت، تلك المكعبات الطينية الصامتة، تقف في الظلام كأنها رهائن معلقة بين زمنين تنتظر نداء لم يُسمع منذ أجيال. حتى الكلاب صمتت كأنها أدركت أن الليل هذا ليس لنباح الحراسة، بل لرهبة لا اسم لها. القمر لا يضيء، بل يختلس النظر من أعلى، كشيخ أعمى يعرف كل الأسماء لكنه نسي كيف ينطق بها. وفي لُجة الليل، حين تنام الأنفاس وتذوب الأصوات، يهمس النيل في سره لا شيء يتغير سوى الظلال والندم.

في الأيام التالية، خفتت ضوضاء الجزيرة، لكن ثقلا خفيا تمدد فوقها كما يتكوم الضباب في حضن الجبال، كأن الأرواح تُعصر تحت وطأة سر عتيق، سر لا يرضى بالكلام.

محسن العائد من قدر ضج بالحروب، لم يجد في الجزيرة ملاذاً، بل قُذف إلى قلب قدرٍ أعمق، خليط من الفزع والغموض. كل يوم يمر، كان كمن يسحب دلواً من طين بارد لا ينتهي.

وحده بخيت ود سعدية الأخرق في عيون الناس، رأى القلق يتسرب من عيني محسن كان يقف أمامه كثيراً، يحدق بنظرات طويلة، ليست بالبلهاء تماماً، بل فيها حفر وتفتيش، كأنها تنقب عن طيف نائم خلف الملامح، وصوته حين يقول: -

أديني طرادة... أديني طرادة كان أقرب إلى نشيج لا يخص الطعام، بل شيئاً أبعد، كأنّه طلب لرحمة لا اسم لها.

في أحد نهارات الحزن، خرج محسن مع عمه درار لزيارة أهل الطفل البدري، الذي وُجد مشنوقاً على نخلة في جنينة أولاد محمد صالح. المشهد ظل عالقاً كوشم في ذاكرة من رآه. جسد صغير، عار، يتدلّى من حبل الساقية، وتحته مباشرةً لحم خروف متعفّن وخضروات مبعثرة، كأن طقساً غامضاً قد أُقيم، لا يُدرى من أقامه ولا لماذا.

همد والد الطفل، لم يكن يبكي ظل صامتاً كقاع نهر جف فيه النحيب.

قال بصوت مبحوحٍ كأنه يأتي من حنجرة جُرح قديم: - لما لقيناه كان زي طير مات في الهوا، وما نزل، الجثة فوق، لكن الروح مدفونة تحت النيل.

نظر محسن إلى النخلة التي شنق فيها البدري، إلى بقايا اللحم المتعفّن وإلى صمت النهر، شيء ما في هذه الجريمة لا يشبه الشر العادي.

امتدت الجنينة كندبة قديمة لم تُشف، وأشجار النخيل واقفة كحراس غافلين، صامتين، متآمرين بالصمت، أغصانهم تلامس غيماً لا يهمس، بل يمر كالدهشة. النخلة التي عُلق فيها البدري بدأت كشاهدة قبر مُعلقة في الهواء، جذعها ينزف بنداء لا يُسمع، وفرعها المعلّق كأن الريح لفظته ولم تعد تجرؤ على لمسه. الأرض أسفلها، غاصت قليلاً... كأنها شهقت من هول ما رأت، وبقايا اللحم المتعفن والخضروات التي وُضعت كقرابين لطقس غير مفهوم، صارت الآن مائدة للذباب، ورائحة ترفض أن ترحل.

تحلّقوا حول المكان، كل يحمل ظلاً أكبر منه، درار بعصاه الملتوية، يضرب بها التراب لا ليُنظّفه، بل ليوقظه، كمن يسأل الأرض أن تتكلم، همد، والد البدري، كان كجدار طيني شارف على السقوط، وجهه غائر كقاع جُبّ، وعيناه لا تنظران إلى النخلة، بل إلى شيء آخر أبعد، ربما مكان كان فيه ابنه ضاحكا ذات مساء، عارف ود محمد صالح صاحب الجنينة،

الممتلئ غضباً، كان يقف كقنبلة لم تنفجر بعد، صدره يعلو ويهبط، وفي عينه لهب أسئلة تحترق ولا تجد مخرجاً

أما محسن الضابط العائد من الخراب، فكان كغريب يعرف المكان ولا ينتمي إليه، عيناه كانتا ترسمان الخرائط الخفية. يرى ما لا يُقال، يحاور الظل، ويعدّ الصمت.

الجريمة في ذهنه ليست موتاً، بل نداء... مشهدٌ كُتب بيد تعرف المدى لكنها تُخفي التوقيع.

والجنينة؟ ليست مجرد أرض، بل شاهد، كائنٌ غامض ابتلع السرّ ورفض أن يلفظه.

في الأفق، كانت الشمس تميل بانكسار، كأنها تخجل من نورها، تسحب خيوطها الذائبة على استحياء، تاركة للّيل سلطة الطمس، ليل كأنه رداء حداد فُصل على مقاس الجزيرة.

محسن، بحسّه المتشبع بتجارب الجنائيين، لم يكن يرى جثة فقط، بل تعويذة مكتوبة بالرمز، بطقوس غامضة، بلغة لا تُقرأ بالحروف، بل تُستشعر بالعظم. كان الأمر بالنسبة له يتجاوز حدود الجريمة، يتخطى النيّات، هنالك إعلان، نُقش على جسد الضحية، وسكب في طقوس المساء.

تحرّك مع عمه درار ووالد البدري صوب البيت الطيني الصغير، حيث اختبأت الأم المفجوعة بين نظرات الصبر وارتعاشات الخوف. تلقّتهم أم البدري بوجه ما تبقّى فيه دمع،

فقط خطوطٌ باهتة رسمها البكاء. الإخوة الكبار كانوا صامتين، كأن الحزن قد شلّ ألسنتهم. صلّوا المغرب هناك، وأثقل الدعاء صدورهم، كأن كل كلمة فيه تُناجي شيئًا أكبر من المأساة.

ثم تحركوا إلى البيت الكبير، حيث انتظرتهم ستونا بهدوئها الذاهل، وفاطمة التي تقبض على المسبحة كأنها حبل نجاة، وميّاسة تنظر إليهم بعينين تحملان من الأسئلة أكثر مما تسمح به الليلة. العم صالحين كان في صدر المجلس، متكئا كما يتكئ المرء على جبل من الذكريات، وأكواب شاي المساء بحليب الماعز، كانت تنتظر، تبرد ببطء، كأنها تدرك أن الوقت لم يعد يقيسه الليل والنهار، بل ما بعد الذبح وما قبله.

كل شيء بدا متواطئا مع الصمت الستائر لا تتحرك، والكلمات تختبئ، والنظرات تشي بأكثر مما تقوله الألسن.

الخطيئة الاولي

في هذا المساء الحزين عاد، محسن بصحبة عمّه درار إلى المنزل الكبير، ذلك البيت الذي ظل واقفًا كأرشيف حيّ للذكريات والخسارات، بعد أن أدّيا واجب العزاء في الطفل البدري، الذي وُجد مشنوقاً كما تُعلّق الأمنيات الخائبة على أغصان الريح

الهواء في هذا التوقيت مشبعاً برائحة الغياب، صلاة المغرب قد هدأت قليلاً من ضجيج القرية الغارق في الحيرة، وما إن وطئت أقدامهم عتبة الدار حتى انسكبت عليهم نظرات ستونا كأنها ماء بارد يُسكب على نار خفية، جلسوا متقاربين في فناء البيت، كانت ستونا ترتدي شال رماديّ تلفّه حول كتفيها كأنما تحاول الاحتماء من برد لا يأتي من السماء، بل من الداخل، إلى جانبها ميّاسة، العمة الصغرى، تحدق في كبابي الشاي كما لو كانت تبحث فيها عن تفسير لما يجري، فاطمة بنت صالحين كانت تنظر إلى الأرض، تتفادى العيون، وفي داخلها عاصفة من الأسئلة تخشى أن تفيض.

جلس درار وسطهم اخذ يتحدث في مواضيع شتى ويحاول

بقدر الإمكان عدم الخوض في أي موضوع متعلق بسلسلة الجرائم التي تحصل في الجزيرة ، محسن ظل ساهما بعد ان جلس بالقرب من عمه صالحين الذي تمدد على عنقريب خالي من اللحاف ، قدمت له فاطمة كوب الشاي وهى تأشر لأخوتها الصغار بالدخول الى الغرفة التي بقرب المطبخ توفت والده فاطمة من زمن ليس بالقريب بعد ان انجبت فاطمة وسَّري الذي غادر الى مصر صباح مجيء مسحن الى الجزيرة ، تزوج والدها صالحين باخري اصغر سنا انجبت له طفلين وتوفت أيضا بالحمي التي ضربت الجزيرة عندما تنحي عبود عن حكم البلاد، مياسة تصارع حظها العاثر مع زوجها المغترب منذ سنتين بالسعودية التي بدأت ملامح انتعاش تظهر عليها اقتصاديا بظهور البترول ، ومع أول رشفة من شاي المغرب، انسابت الكلمات من فم محسن متسائلاً:-

-اول قتيل في الجزيرة منو...؟

رفع درار راسه ونظر الى محسن كأنه في انتظار تلك اللحظة ليُفرغ حملا يوشك أن يخنقه قال درار بصوت يشبه الخطو على قشر بيض في الوقت الذي أنصت فيه البقية وظهر الاهتمام على وجه محسن: -

-والله كانت جريمة أقسى مما يحتمل القلب يا محسن يا ود أخوي القتيلة اسمها أمونه، فتاة من الحلبة الغجر البجونا من جنوب مصر، بنت في عمر الورد حين يبدأ يذبل من فرط

القطف، جمالها ما كان عادي،

رفع درار راسه ونظر في عيني محسن وواصل: -

-بت ذي الفتنة البتمشي على قدمين، تشعل في أولاد الجزيرة ناراً لا تطفئها كل أنهار الدنيا، بنت مخلوقة من حرير وجمر، تُجيد بيع الجسد كما يُباع العطر بسخاء ودهاء. لم تكن تطلب الكثير، فقط لحظات من الشهوة النهمة، كأنها لبؤة خُلقت من عري الخرافة.

درار يجيد استخدام اللغة بحكم دراسته السابقة في كلية الآداب التي لم يكملها بسبب نشاطه السياسي بجامعه الخرطوم الامر الذي ادي لفصله حينها من قبل نظام عبود قبل أكتوبر

اخذت ستونا اخته الكبرى تنظر اليه بسخريه وسط ابتسامات فاطمة ومياسة سألته مستفسرة بعد ان حدقت في عينيه ملياً: -

انت يا الشقي عرفت جسدها حرير كيف ...؟ و-

لم يكن الوقت مناسبا لمثل هذه التحقيقات الابوية لذلك انطلق سؤال محسن محاولا تغيير الحديث من ان يأخذ منحنى اخر

-قتلت كيف ...؟

كان رد درار سريعا محاولا التهرب من سؤال اخته الكبرى فقال: -

-وجدوها ممدّدة في أحد الممرات الترابية بين الجنائن، هناك حيث تتهامس الأشجار بأسرار العشّاق والغرباء، كانت عارية كالحقيقة مسجًّأة على ظهرها وفوق جسدها شراشف من ذهول وتحتها قطعة قرمصيص مغموسة في تراب الأرض، وتراصت على جانبها فتيل كبير من خمرة وعلبة دلكه لم يكتمل احتراقها على الجسد، وحلى صغيرة وملابس نوم واشياء تشبه طقوس اول يوم لدخله عريس، ولكن لأشيء يُشبه رحيل امونه

بدأت علامات حيره أكبر في عيني محسن الذي تسأل مرة اخري قتلوها كيف خنق ولا ذبح ذي جاهين

رد عم صالحين هذه المرة وعلى وجهه حزن كبير: -

-تصدق يا محسن يا ود أخوي لم تكن هناك آثار اعتداء تقليدية كما في القصص الرتيبة، لا طعنات، لا سكاكين، فقط نزيف كثيف من فرجها، كأن الحياة قررت أن تخرج منها من ذات الباب الذي دخلت منه رغبات الرجال

وفى أثرُ عضة عميقة على أحد نهديها، ذي التقول في وحش من الظلام حاول أن يلتهم النور فيها.

ساد الصمت في المجلس، كأن كل من فيه قد بلع ريقه خوفاً من أن تُخرج الحكاية لسانها وتواصل.

محسن ظل ينظر إلى الفضاء، يستنطق النجوم أن تعرف من فعلها، أو كأن الليل يُخفي بين طياته قاتلاً لم يتعلّم كيف

يُخفي أنفاسه، امتدت لحظات الصمت مثل سجادة عزاء فوق الأرواح، وكل من في المجلس يحاول أن يُنصت أكثر مما يتحدث، خوفاً من الكلمات إذا خرجت تجر خلفها سيولاً من الدم والأسئلة.

شحُب وجهه محسن قليلاً، رفع بصره إلى عمه صالحين وسأل بصوت هادئ كمن يحفر بئراً في أرض جرداء

-الشرطة قالت شنوا في التقرير؟ السبب المباشر للقتل

هزّت صالحين رأسه ببطء، كأنه لا يصدق أن أمونه أصبحت جثة، وقال:- جينا للبيت هنا بعد ما شفنا جثة امونه واخدنا عمتك ستونا ومعاها الداية تاج الملوك سقناهم لمكان الحادث الشرطة والناس كإنو ذي التقول حج، عمتك سترتها بقطعه دمور والداية كشفت عليها وقالت لينا: -

-ماتت بنزيف حاد ،المؤلم إنو الرحم كان مشقوق من الداخل، كأنو في شي اندلق جوأتها بالقوة، لكن ما في دليل واضح، لا سلاح، لا أداة حتى الدلكة جنبها كانت ما مفتوحة، وكأنها كانت بتجهز لزول وجاها الموت قبلوا

تدخّلت مياسة لأول مرة، بصوت خافت:-

-قالوا لِقوا فوق رِجلها دم متجلط ليهو زمن، يعني ما ماتت هناك اتجابت واترمَت بس.

نهضت فاطمة فجأة وهي تحاول كتم شهقتها، وركضت

على غرفه اخوانها الصغار تخفي دمعها من هول الفاجعة، لم يكن موت امونه او جاهين في ذاته الألم، الوجع يكمن في الطريقة البشعة التي تم بها الخلاص، لم يتحرك أحد خلفها، كلهم علموا أن الحكاية ليست حكاية أمونه وحدها، بل حكاية القرية كلها، قرية تقف على فوهة قدر يغلي بالخطيئة والخوف، درار وقد أرخى ظهره على كرسي الخيزران، قال بصوت خفيض كمن يحكي لنفسه: -

-اليوم داك، كانت الدنيا مبلولة بندى غريب ما مطر، ذي التقول الأرض عرقت وريحة الخمرة ماليه كل الطريق من قوز الحلبة للجنائن، بس تقول كان ماشي وراها زول بنفض في فتيل الخمرة على الأرض.

محسن ضغط على كفه بقوة، هناك شيء خفي، الجريمة ليست فقط قتل جسد، هناك شيء أعمق، شيء مثل لعنة

نظر إلى عمته مياسة متسائلا: -

-ومن بعد أمونه..... البدري؟

أجابت مياسة بصوت ملئ بالرهبة: -

- بأقل من عشرة يوم سمعنا بموت البدري معلق بحبل في النخلة.

أدار محسن وجهه نحو الظلام الممتد خلف باب البيت، وقال في سره

لو كانت أمونه أول الحطب، والبدري الشرار، وجاهين رقم ثلاثة فالنار دي لسه ما ولعت.

بعد صلاة العشاء، انسحبت عماته إلى الداخل، وأخذ درار الرتينة الى داخل الصالون وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة، كأنما يُطرد ظلاً لا يُراد له البقاء

تحرك محسن ايضاً نحو الصالون وجلس على كرسي خيزران وأمامه منضدة خشبية صغيرة كان يستخدمها درار أيام المذاكرة انعكست فوقها أضاءه خافتة ظلّ وجهه متعب بدأت انعكاسات الإضاءة على الحائط ترسم ظلال وهم لشخص يجلس مقابله كأنه يحقق معه

وقف درار امامه بعد ان غير جلبابه باخر وقال: -

-انا خارج على القوز تعال معاي نقابل الشباب ونقعد للونس ضباحين لينا تيس ما تـــجي، منصور ود الأستاذ جاء من دنقلا شايل معاه افرنجي تعال ياخ غير جو معانا بدل قعدتك في الصالون براك زي السجين

اعتذر منه محسن بلطف في نفس اللحظة التي خرج فيها درار وهو يقول ما تنظروني لشي ممكن أتأخر.

فتح محسن دفتره الجلدي واخرج قلما اسود من حقيبته الصغيرة وبدا يكتب

ملاحظاته.

القضية الاولي أمونه بت الحلبة

زهرة شهوانية فاحت رائحتها في الطرقات وُجدت كما تولد الخطيئة عارية، مذعورة، بعينين جامحتين كأنها حدّقت في الهاوية نزيف من عورة مستباحة، وعضّة على أحد نهديها بجانبها دلكه شهوتها، وثياب نومها، وفتيل خمرتها

علق محسن على نهاية القضية الاولي كاتباً لم تسحب، بل مشت الى قدرها بإرادتها.

القضية الثانية البدري ود همد

طفل بدين، لا يشبع من الطعام ولا من الحنان وُجد يتدلّى من نخلة كأن الأرض لفظته إلى الأعلى عيناه مذعورتان، شاهَد شيئا لا يُحكى ولا يُكتب بينه وبين أمونه خيط خفي.

الجريمة الثالثة جاهين التاجر

رجل السوق والميزان وجد مكتوفا كأضحية، مذبوح بسكين صامتة دمه صُفي في صفيحة الطحينية كأن قاتله طباخ ماهر، لا كسر، لا سرقة، لا أثر... سوى عيون ميتة ظلّت تصرخ.

كتب محسن تعليق أسفل الصفحة بخط أكبر

ثلاث جثث، ثلاثة فصول من قصة واحدة لم تُكتب بالدم، أمرأه سارت إلى موتها برغبة، وطفل صعد إلى حتفه بحبل، وتاجر نُحر بلا مقاومة لا شيء يربطهم حتى الآن سوى العيون،

كلهم ماتوا بعيون مفتوحة، كأنهم شَهدوا وجه القاتل لا سرقة، لا شبهة غيرة، لا انتقام ،فقط صمت مدجج بالعبث من يقتل دون سبب؟ من يعيد ترتيب الموت بهذا الاتقان؟ أبحث عن خيط، ولو كان خيط دخان فكلما حاولت أن أرى المشهد من علٍ، بدا لي أن القاتل لا يقتل الأشخاص، بل يعاقب الرموز ثمة عقل، وثمة رسالة، لماذا يترك القاتل ضحيته بهذا الكم الفاضح من الأسئلة.. لماذا هذا القداس على كل ضحية هذا يدلل على ان القاتل شخص واحد على الأرجح.

سحب محسن نفسا طويلاً، وأرخى جسده إلى الخلف، وعيناه على السقف الذي شرب سنوات من الرطوبة والحكايات اخذ يعد على نفسه ما كتب كمن يفتح طاقة في الجدار

أمونه.... البدري... وجاهين

هناك خيط، لكنه لا يُرى القاسم الوحيد بينهم هي النظرات التي رسمت على الضحايا نظرات رعب او خوف وهذه الطقوس حول كل جثمان.

هل الجرائم الثلاث ظلال ليد واحدة...؟ يد تعرف الجزيرة أكثر مما تعرفه الجزيرة نفسها، لم يستسلم للفكرة التي تتحدث عن ان هنالك روح شريرة هي من تقوم بتلك الجرائم هنالك شيء يربط بينها.

الليل بدأ يتكئ على كتفه، والهواء صار أثقل، تمدد على العنقريب واغلق الدفتر ووضعه تحت وسادته كأن ما فيه ليس

مجرد ملاحظات، بل اسرار لا يجب أن تُترك مكشوفه، غفت عيناه على وقع سؤال لم يجد له جوابا...

ماذا لو كان القاتل امامه ويعرف كل حركاته بالأخص ان القاتل هو من استدعاه الى الجزيرة من الخرطوم بخطاب!!!!

اخذت أنفاسه ترتفع ودقات قلبه تزيد قام واخرج الخطاب إياه من الحقيبة الكبيرة اخذ يتفحصه بدقة خطرت له فكرة مقارنه الخط مع تلك الرسالة التي وجدت في جيب جاهين، لكن مهلا من، من اهل الجزيرة يعرفه الى درجة ان يكتب اليه خطاباً ويرسله بالبريد على مكان عمله؟؟؟

جحظت عيناه من الفكرة التي جالت بخاطرة ليس هنالك الا اعمامه وعماته

وانطفأ الليل في قلبه، كما تنطفئ لمبة اضاءة قديمة بلا إنذار لملم هواجسه سريعا ،وخُطي خارج الصالون تأتي مسرعة نحوه لا يدري ماذا يفعل وقف سريعا متأهبا مثل ليث يحاول ان ينقض على فريسة وصلت اليه ضحكات فاطمة وعمته مياسة قبل دخولهم الى الصالون حاملين صينية العشاء ومن خلفهم ظلالهم تخيفهم فركضوا نحوه مرعوبين.

صلالة من جديد

على شرفة الفيلا بصلالة يبدو ان الزمن قد مضي والجميع متسمر لحكي عم محسن الشمس أرسلت اشعتها الى الشرفة تمسح تعب الحكي عن جبين المستمعين، والصباح ينسحب رويداً ممدا ظل أشجار النارجيل التي تحرس الحديقة كما تحرس الجدات أحفادهن ارتفع الاذان معلنا صلاة الجمعة وتفرق الجميع من على الشرفة الى حين لقاء لتكملة اسرار الجزيرة

عقب صلاة الجمعة، التأم الشمل مره اخري كأنهم خيوط نور عادت إلى نولها الأول، جلس عم محسن على رأس السفرة كملك قديم يحرس النعمة، جلست الى جواره، وبجانبي خالد شقيق شاهيناز الذي انشغل بحوار متقطع مع والدته، التي لم تكف عن إرسال نظرات لا أعرف لها تفسيراً نحوي، وكأنها تقرأ في ملامحي وجع وحدتي، او تحاول ان تجد سر خفي لحياتي الوحيدة في الغربة.

آسيا، جرحاً متكئاً على وسادة، جلست عند حافة المجلس تراقب أبناءها وهم يركضون خلف كرة الحكايات مع أولاد جيهان. حاول عم محسن، ومعه فاطمة وصديقاتها، أن

ينتزعوها من عزلة ذلك الحزن الكتيم وان تأكل معهم استجابت لهم على مضض وجلست كغيمة لا تريد أن تمطر، كان في داخلها رغبة أن تستمع، لا أن تشارك.

اقتربتُ انا براسي من عم محسن، وقد كانت القصة التي رواها قبل الصلاة لا تزال تتوهج في ذهني كجمر تحت رماد. قلت له وأنا أُحاول أن أُخفي لهفتي تحت ابتسامة هادئة: -

-عم محسن... قصة جزيرة ناوا... دي حقيقية؟ ولا خيال زول موهوب ساي؟

لم يجب، بل اكتفى بنظرة بعيدة، وكأن السؤال أيقظ فيه ذاكرة كانت نائمة على حجر نيل قديم ضحكت الحاجة فاطمة ضحكة فيها شيء من معرفه، اخذت تنقل قطع اللحم إلى الصحون كأنها توزع أدوار الرواية، وقالت: -

صاح -قاعد يحكي ليكم قصة القتل الحصلت في الجزيرة

ردّت الأصوات من حول السفرة، كأنها جوقة مسرح تنتظر الستار

-أيـــــوة!!!

سألتها شاهيناز، وهي تمط الحروف كما يُمط السؤال في حضرة الأسرار

-خالتي فاطمة القصة دي... حقيقة؟

فقالت الحاجة فاطمة، وهي تسكب الشوربة على اكواب صغيرة كأنها ترسم على طبق الزمان

- فيها الحقيقة، وفيها الحيرة... أنا كنت هناك، يوم الدم انسكب وطلاسم الحكاية دي ،ما في زول غير محسن قدر على حلها.

قالت حجة فاطمة كلماتها تلك ونظرتُ إلى زوجها بإعجاب مشوب بالدهشة، كانت الكلمات تشتعل في رأسي كبذور قصة وجدت تربتها، شعرت حينها أن قصة (سديم النيل) لم تعد مجرّد حكاية تُروى، بل قدرٌ ينتظر أن أكتبه، لا كمستمع، بل كمن عاش القصة وهو يحتمي في ظل الحكاية.

بعد الغداء تجمع الجميع حول عم محسن في هول الفيلا الكبير، انجذب اخرين خالد واحمد للقصة بعد سماعهم لجزء من التفاصيل انجذبوا للحديث كما تنجذب الفراشات نحو الضوء، وكلما مرت نسمة محمّلة بعبق اللبان قادمه من جبال ظفار ازدادت الأرواح انفتاحاً. ففصول الحكاية التي كان يرويها الضابط العائد من متاهة الخراب، كانت تجد صدى واسعاً في قلوب الجميع

قال عمّ محسن وهو يجفف يده بمنديل ورقي ويجلس على كرسي وثير بهول الفيلا: -

-أنتم لا تعرفون جزيرة ناوا كما نعرفها... الجزيرة لا تخبرك بأسرارها حتى تذوق مرّها، ما جرى هناك ليس مجرد جرائم،

بل خيوط في نسيج أكبر، وجراح نائمة في بطون السنين، في تلك اللحظة، مرّت الحاجة فاطمة بخطاها الواثقة تمسح على رؤوس الحضور بكلمات مثل تميمة حفظ، وصوتها يطل من وراء الباب قائله: -

-صبوا الشاي يا بنات القصة ملحوقة

اشارت الى بنتها جيهان ان تقوم بتقديم التحلية والفواكه التي على المنضدة

قالت شاهيناز وهي تصب ابريق الشاي على الاكواب: -

ما تحكي شيء عم محسن لحدي ما أكون معاكم -

ابتسم الرجل العجوز واؤمي برأسه دون حديث، لكن الحكايات قررت ألا تنتظر الجميع، أن تتسلل بين الملاعق والكلمات، أن تحضر مع اكواب الشاي وطعم سلطة الفواكه، لأن ما يجري ليس مجرد سرد، بل ولادة جديدة لذاكرة ما زالت تبحث عن خلاص... كان عم محسن يفتح الأبواب لجمعة لا تُنسى، جمعة اجتمعت فيها الأجساد في مكان واحد، والقلوب في سؤال واحد

من هو القاتل؟ وهل القاتل دائماً واحد؟ أم أن الموت أحياناً يمرّ من بين الجميع، ويختارنا فرادى، دون أن نعرف متى وأين ولماذا؟

قدمت لي شاهي كوب الشاي كانت تتقدم نحوي وكأن

الأرض مفروشة بنعومة السحاب، تحمل كوب الشاي كما لو أنه قلبها تقدمه لي، وفي عينيها شيء من لهفة العشاق وحياء البنات ابتسامتها لم تكن عادية، بل كانت كغيمة بيضاء تشق حياتي الكالحة بالعتاب، تُرسل دفئها إليّ مع كل خطوة، وكل رمشه من عينيها تقول اقترب، فما أنا إلا نداءك المؤجل ،حين مدت يدها بكوب الشاي، شعرت أنني لا أمسك زجاجا، بل أحتضن لحظة نادرة من الحنان، تلك التي لا تُشترى ولا تُعاد، وكأنها سكبت في الشاي شيئاً من روحها فصار الشاي حلواً بغير سكر، دافئاً بغير نار، لأن دفء قلبها أشعل في قلبي حرارة من نار سبق حرارة الشاي، كيف لأبسط حركة من هذه الأنثى ان توقظ رجل مثلي ملئ بالخيبات لم يلاحظ أحد من الحضور اللغة التي بيننا ، استفقت على صوت عم محسن وهو يواصل نسج حكاياته بصوته الرصين كمن يوقظ جراحاً قديمة تحت رماد الصمت، نبرة صوته كانت تمسك بي من خاصرة الوعي، كأنها تصفعني لأعود كاملاً للحقيقة، حقيقة أن ما يحدث ليس مجرد حكاية، بل فصول جريمة تمشي بين الناس مثل ظل بلا جسد.

اخذت أحدق فيه مثل بقية الحضور، وقلبي يدق كأن بين ضلوعي طبول حرب، والقصة تزداد اثارة وغموضاً، هكذا بدأت الفصول التالية للرواية، ووجه عم محسن يُضيء في ذاكرتي كمئذنة في ليل بلا نجوم

الخطيئة الرابعة

مساء متعب بالاختناق، رطوبة النيل تلفُّ القلب كما تلفُّ الطحالب جذوع المراكب المهجورة حرارة الجو تثقل الصدور، وكأن الزمن قد انحشر في زجاجة مغلقة، الظلال في فم الرمل مثل سكر محترق، عثروا على عباس شرارة جسداً ساكناً فوق فُوّهة الكسل التي ابتلعه أخيراً كما تبتلع الرمال أقدام من ينام واقفاً. كان ممدّداً على بطن الأرض، بالقرب من منطقة الآثار، عند طرف الكثيب الذي يسميه الرعاة قوز النائمين، كأنما اختار موته بنفسه في حضن الغبار وذاكرة العظام القديم الشمس آنذاك كانت قد حسمت نزاعها الأخير مع الأفق، تُصلي الأرض بلظى احتضارها، والريح الحارّة تعزف لحناً حاداً على حواف الرمل المنفوش. هناك وُجد عباس، مرتدياً جلباباً مفتوح الصدر، كأنه كان يحتسّى الهواء قبل أن ينقطع النفس. حوله، زجاجات فارغة من أنواع شتى ويسكي غامق اللون، عرقي محلي، فودكا روسية، كان طقس موته وليمة شياطين، أو قداساً أقامه على قبره بنفسه، الغريب أن جسده كان جالساً على طريقة المصلي، كأن بينه وبين السماء ميعاداً ضاع وسط السُكر، رأسه مائل، ووجهه كُشف عن تعبير غريب لا هو فزع، ولا هو ندم، بل

شيء أشبه بدهشة طفل رأى الموت يزحف نحوه ببطء ولم يتحرك، في إحدى يديه مسبحة متفحمة كأنها انشوت بنار سر لم يحتمله قلبه، وفي الأخرى ورقة نقدية مبتلة بالعرق والدم، ممزقة النص تعطيك انطباع بان آخر ما فعله هو محاوله رشوة ملك الموت ليمهله قليلاً

الشرطة حين وصلت، بدت حائرة لا آثار ضرب، لا سلاح ظاهر، لا مقاومة. لكن على وجهه كان هناك خط رفيع من الدم انساب من أنفه حتى تشقق شفتاه، وفي عينه اتساع شنيع، كأنما رأى شيئاً هائلاً قادماً من جوف الدنيا. الطبيب قال: مات بسبب ذبحة صدرية لعله خوف مفاجئ

قال درار وهو ينظر الى الرمل حين تواجد مع جمع غفير امام الجثة:-

-الكسل مرض لكن أحياناً، يصبح لعنة، وربما جاءت خطيئته بالموت

وجلست بجواره حتى بردت روحه الكسولة.

أشار الضابط المحقق إلى الزجاجات الفارغة وامر عساكره بالتعامل معها بحرص لرفع البصمات.

عباس كان نائماً طيلة حياته، لكن يبدو أن الموت جاءه أخيراً لا ليوقظه، بل ليضاجع كسله، كانت تلك نهاية عباس شرارة، ابن الرفاهية والنسيان، الذي لم يسر في الدنيا إلا نحو

الأندية، ولم يسع في الأرض إلا لجمع إرث لا يعرف قيمته، فمات كما عاش دون حراك، في حضن الرمل، وتحت شمس كانت شاهدة على غيبوبته الأخيرة.

وصل الخبر إلى الجزيرة لا كخبر، بل كنذير شؤم حملته الريح من جهة الآثار... تلك الجهة التي لا يذهب إليها أحد في هذا الوقت من السنة إلا من ضلّ طريقه أو ضلّت روحه. راعي غنم صغير هو من رآه أولا، كان يتتبع ظل عنزة شردت عن القطيع، فشاهد الجثة من بعيد، أول ما لمحها، ظنها صنماً مهجوراً من زمن الممالك القديمة، حتى اقترب وارتجف قلبه، ثم جرى مثل جنى قراء عليه قران

دخل الراعي إلمسيد وهو يلهث، صوته متقطع، لا يفهم منه الناس إلا كلمات مبعثرة: -

في قوز الرمل... رجل نائم... حولوا قوارير... وجهو مفتوح للسماء

تجمّع رجال الحلة حولوا، انفتحت الأبواب بخوف ورعب التقطت النسوة ثيابهم على عجل خوف ان تكون هنالك مصيبه لقريب، تحلق الجميع حول الراعي كما يتجمع النمل حول قطعة سكر وقعت من يد غافلة، وسرعان ما اندفع بعض الشبان وهم يتنادون انقسموا مجموعتان أحدهما بقيادة درار ومحسن تحركوا على موقع الجريمة ومعهم الراعي، والأخرى كانت تتبع عم صالحين الذي قال صائحاً

خلونا نبلغ قسم الشرطة ... ننادي الضابط عبد العظيم

وقف عم صالحين كجذع نخلة ضاعت عنه الظلال، وحوله نفرٌ من رجال الجزيرة، بعضهم يطوي طرف عمامته كأنه يبحث فيها عن إجابة في خيوط القماش، وآخرون يرمقون باب مكتب الضابط مثل باب مقام لا يُطرق إلا في المصاب الجلل، خرج الملازم عبد العظيم من عمق مكتبه الي بهو المركز، خطاه تحمل ثقلاً لا يشبه التعب، كأنت الأرض تنحني تحت قدميه لتفسح له الطريق. ملامحه لا تعرف الفضول، ولا يسكن في عينيه إلا ضجر قديم، بيده أوراق كأنها لا تعنيه، يسلّمها لجندي دون أن ينظر إليه، كمن يُلقي صدقة على مائدة لا تليق به، طاف بنظره على الوجوه الواقفة، لا بحثاً عن سؤال ولا عن إجابة، بل كمن يفتّش في وجوه الحضور عن مَن يليق به أن يُخاطب، توقفت عيناه عند عم صالحين، لكن لم تنحنِ، فقط مرّت كما تمر الريح على وجه صخرة

قال وبالكاد يُسمع صوته، دون أن يرفع رأسه تماماً

-في شنو تـــاني يا شيخ صالحين؟

قال صوت من الحضور

-جريمة قتل اخري يا جنابو

ادار الضابط جسده الى الخلف ومضي وسط دهشه الحضور، وكأن الرجال الواقفين ليسوا بشر من لحم ودم، بل

صدى بعيد لا يرقى أن يلامس أذنه

عبَر إلى مكتب اخر بخطى تحفظ لها الأرض هيبتها، وخلفه ترك الصمت يهبط على الجميع كنذير، لا كجواب وهو يقول: -

-انتو البلد دي غير القتل ما فيها حاجة.

لم تمضي لحظات حتى كان ضابط اخر محمد إسماعيل ومعه الصول عابدين يقفون بالقرب من عم صالحين يأخذ الضابط بيده ويستمع لأقوال البلاغ خرج صالحين من القسم بصحبته وبعض العساكر وهو يدرك أن الخطيئة قد لبست وجهاً يعرفه هذه المرة ترك عبد العظيم مع نفر قليل من عسكر لحراسه القسم.

حين وصلت مجموعه درار ومحسن الى مسرح الجريمة كان المكان قد بدأ يتحوّل إلى حلقة من الهمس والوجوم. رجال يرفعون العمائم عن رؤوسهم احتراماً للموت، واخرين يبسملوا ويهمهموا بصوت خفيف كإيقاع حزين، والجو يختنق بالحرارة والرطوبة ورائحة الخمر المتخثرة في التراب ترفرف في انوفهم مثل دعوة للمجون.

وقف محسن بالقرب من الجثة يتخذ من الغروب خفاء له قبل مجيء الشرطة، اخذ ينظر إليها طويلاً كأنها سؤال لا يملك له إجابة لقد عرف عباس في صغره، كان يأتي إليهم في المناسبات مع أبيه عبد الله الشايقي، رجل وقور ومحب

لأهل الجزيرة كان صديقا لجده حسين، يتذكر عباس جيدا أيام الدراسة الأولية دائمًا الضحك دون سبب كانوا يقولون عليه عباس أبو قلباً ميت، يأكل أكثر من الجميع، وينام في أقرب كنبة يجدها، وصلت عربيه الشرطة وتراجع محسن الى الخلف الا ان عيناه ظلت تحفر في كل التفاصيل في مكان الجثة

عادوا إلى داخل الجزيرة في موكب حزن ثقيل. لم يُدَق الطبل، بل دقّت القلوب في الصدور، كلما اقتربوا من الحي

كانت عمته ستونا أول من صرخت حين لمحتهم

-مات كيف ..... عباس...؟

واخذت تنوح ومن خلفها بعض نسوه من الحي

درار فارق الجمع وجلس على عتبة زاوية الصلاة بالمسيد وهو يطالع الأرض بنظرة فارغة، قال لمحسن الذي يجلس بالقرب منه

الدنيا خَدَعت عباس... خلتو يفتكر انها دائمة... لكنها سبقته طلع منها ساي. -

خلف صدى حديث درار أسئلة لا يُجاب عليها في ذهن محسن من قتل عباس؟ أم أنه قتل نفسه بصمته؟ هل خانته صحته؟ أم خانته الحياة نفسها التي لم يعشها بجد؟

اخذ ينظر في الساحة امام المسيد، لم يُشارك أحد في

الكلام، كان يراقب كل شيء كضابط جنائي تمتم في نفسه

- ماهي خطيئة رجل مثل عباس ليس لديه في هذه الدنيا الا النوم والخمر، لا يتدخل في حياة الاخرين ولا يريد أحد ان يتدخل في حياته.

لعلها لعنة اصابت الجزيرة، لا تقتل بضربة واحدة، بل تقتل ببطء، كمن يُسمّم روحه بجرعة صغيرة كل يوم، حتى لا يبقى فيه نفس للفرار، ولأول مرة تنزل من عين الضابط الهار ب دمعه حارة على خده حزنا على قتيل.

ذلك المساء بردت الجزيرة رغم الحر والرطوبة التي كانت فيها، وكأن حزناً غطّى سماءها ومضي، رجال الحي يتهامسون عن عباس المسكين وجات سيرة جاهين وامونه والبدري، وارتفعت في الجدران آهات مكتومة، وبدأ محسن يدوّن في راسه اسماً جديدا.

مات عباس شرارة، وبقيت خطيئته حيّة، تفتش عن جسد جديد، لكن ما هو القاسم المشترك بين كل الضحايا قال لنفسه وهو ينظر الى الجمع يدخلون الى الزاوية لصلاة العشاء.

البحث عن خيط

الليل أطبق على الجزيرة ككفن ثقيل، والكوابيس تمشي بين الأزقة على أطراف أصابعها، ظل محسن مستيقظ العقل رغم تعب اليوم واجتهاد ذهنه في تحليل

الجرائم التي ضجت بها الجزيرة ومحاوله إيجاد رابط بينها، ذهب مع عميه صالحين ودرار، وبعض الرجال، صوب المستشفى، حيث يرقد جسد عباس مثل سرّ خبيث هناك، المستشفى كانت باردة كقلب القاتل، والجثة ملفوفة بشراشف تشبه التوابيت، تئنّ بصمت، كأنها جثة اسطورة قديمة سحبت من بين صفحات الحكايات التي تضج بها الجزيرة لتدفن في صمت خرجوا بجثمان عباس بعد الصلاة عليه تحت ضوء الرتاين المرتجف صوب المقابر لدفنه، تتمايل الظلال حولهم مثل طيف الموت، حتى وصلوا إلى مقابر الجزيرة تلك الأرض التي طالما تكدّست فيها الأساطير كما تتكدس العظام تحت التراب، كانت تستقبلهم بصمت موحش، ووجه جامد لا يشي بالرحمة المقابر أرض رهبة ورعب حيث تبتلع الحكايات ألسنة الرواة، وتصبح العيون أفواهاً لا تتكلم، ضوء الرتاين يرتعش فوق شواهد القبور، فبدت مثل جماجم شيطانية نائمة تضحك من

تحت الأرض، والهواء يئن من الحكايات التي تفوح بموت كل جثة جديدة، همسات المشيعين وخطوات العسكر كلها تضع لحناً جنائزياً وكأن الموت نفسه يعزف على أوتار الهواء، دفنوا عباس وسط صمتٍ ثقيل لا تسمع فيه الا الهمسات، من القادم ،،،،؟ من التالي،،،؟

هل نحن أهداف في دفتر قاتل يكتب نهاياتنا بدم بارد.

وقف محسن قرب القبر، والعرق يبرد على جبينه رغم برودة الليل هو لا يصدق السخافة التي تقول إن الجن وحده خلف هذه الجرائم، ثمة عقل بشري، مظلم، يقف وراءها، عقل ذكي، مريض، متفنن، وساخر شخص يعرف الضحايا، يتنقل بينهم كالشبح، ويسبق الشرطة بخطوات واثقة.

نعم، هو يتحدّى الجزيرة كلها، يختبر ذكاءهم، بل يفترض فيهم الغباء، أرسل له الخطاب ليتحدّاه مباشرة، ليتجرأ ويعود إلى مسقط راسة، انفضّت جنازة عباس وتفرق الجمع كأنهم يحملون شبح الموت في أكتافهم وعاد محسن مع عمه درار إلى البيت القديم.

لم يستطع النوم، كان يتقلب على عنقريب جدة كأن فراشه من شوك، وأفكاره من نار، النوم فرّ منه كأنه مذنب كلما اغلق عينيه راي وجوه القتلى، دماءهم، صمتهم، رأى عيوناً مفتوحة بعد الموت، تسأله: - لماذا تأخرت؟

استعرض في ذهنه تفاصيل الجرائم..... الدماء، أماكن

القتل، أنين الأرواح، مُر المشهد في راسه مثل عرض سينمائي يُعرض في حجرة مظلمة داخل رأسه

لكن السؤال الأخطر ظلّ يطرق جمجمته بعنف، من أين للقاتل أن يعرف مكانه في الخرطوم؟ كيف أوصل اليه الخطاب؟

التفت بتوجّس نحو عمه درار، فوجده غارقاً في نوم ثقيل، كان التعب قد أكل ملامحه، فكرة مرعبة تسللت اليه كأفعى سامه تهاجمه هل يمكن ان يكون القاتل عمه.؟

تجمدت عيناه على جسده، شلّه الرعب

طرد الفكرة سريعاً كأنها شيطان وسوس له في لحظة ضعف

لا... لا، الأمر أكبر من ذلك.

لا بد يكون هنالك خيط يربط بين الضحايا. لو وجد العلاقة، وجد المجرم

اخذ محسن يتقلب في تحليلاته وإذا بأذان الفجر يشقّ الليل كصرخة مولود في غرفة ولادة معتمة، صباح جديد في جزيرة الموت، وعيون محسن مازالت مفتوحة كأنها لم تذق طعم النوم منذ سنين

أول الخيط قطرة

صباح الجزيرة كئيباً، شاحباً كوجه ارمله قضت ليلتها بجوار جثمان ولدها الوحيد، محسن لم يذق طعم النوم ليومان بدأ الارق على روحه مثل فم لا يشبع، خرج من زاوية الصلاة بعد صلاة الفجر والهمسات تملا الهواء صوت النخيل يرثي الموت الذي صار يمشي بين الطرقات، بدأت الحياة تدب في الجزيرة وأقدام الناس تجرها الحيرة فوق رمل الازقة.

ومحسن الهار ب من موت لموت اخذ يزرع الشوارع كمن يبحث عن شيء اضاعه في حلم قديم، يحاول ان يجد خيطاً بين الضحايا، يبحث عن خيطا رفيعا كالشعر بين القتل والنجاة، كل جريمة كانت تقف أمامه كتمثال بلا ملامح

وذاكرته تحاول أن تنحت المعنى على الصخر، فجاءة وبدون مقدمات خرج بخيت ود سعدية من عمق الطريق، كأنما شُفط من جوف الأرض

كان يهمهم بكلمات غريبة أقرب لتعويذه منها لهمهمات مجنون، أخذ ينظر إلى محسن بعينين لا تستقران، عينين فيهما براءة المجانين وخبث العارفين

جسده الهزيل لا يوحي بشيء، لكن يداه، كانتا كأنهما صُنعتا لحمل صخرة أو خنق عنق، كأنها نحتتا من خشب قديم ولكن بشقً الروح.

شعر محسن نحوه يتعاطف كبير حاول الاقتراب منه وبخيت يضع على فمه ابتسامه بلهاء ويقول بصوت أقرب للنحيب: -

عايز طرادة .... ادیني طرادة

تجاوب معه محسن واعطاه ما يريد، فرح بالمنحة واخذ يتراقص امام محسن كأنه عابد يمارس طقوس دينية، تركه واخذ طريقه مره اخري في شوارع الجزيرة يفكر ويحلل في عناصر كل جريمة، وبخيت يمشي خلفه كظلّ مجنون يرفع النقود الى السماء فرحاً ويطيل النظر اليها.

وصلت اقدام محسن الى أطراف الجزيرة هناك حيث ينحني النيل كرقبة نسر تعب، وتبدأ الأرض في همسها الغامض، كأنها تروي لمن يصغي حكاياتٍ ضاعت في الرمال. هناك حيث تتناثر شظايا الزمان، وقف أمام أطلال تعود لعصر سحيق، بقايا مملكة أكلتها نار الاجتياح اجتياح مملكة أكسوم الإثيوبية لمملكة كوش، حين سقطت مروي، وانفرط عقد حضارة كاملة، لتنبت بعد الرماد ممالك مسيحية تفرّقت كالنجوم في سماء النوبة، الآثار المسيحية القديمة كانت مغمورة بالغبار، مكسوّة بالصمت والخراب كنائس بلا أسقف، أعمدة تتكئ

على ذاكرة مكسورة، وزخارف تمحوها الريح.

هذه الجزيرة كانت ضمن مملكة المريس نوباتيا. لا تزال الرموز المسيحية والصلبان الغارقة في الطين والنقوش المنحوتة على الحجارة الصماء، تهمس بما مضى، تشهد على عصر دانت فيه الأرض للديانة المسيحية، ورفرفت راياتها فوق المذابح والكنائس، قبل أن يبتلعها النسيان.

تأمل محسن في الحجارة، وقد تآكلت أطرافها كأنها تحاول النجاة من الزمن، لكنها ظلت شامخة تحمل أسرار ملوك ورهبان، دماء وصلوات، وممالك تنهض وتسقط.

كانت الكتابات المحفورة تكتب بلغة لا يقرأها، لكنها تفهمه، توشوش له عن قرابين أُحرقت، وأجراس دقت فوق المآذن الغافية.

تذكر محسن طفولته في الجزيرة، تذكر كيف كانت هذه المنطقة محرّمة، كأنها منفى الأرواح أو مقام الجنّ، كيف كان آباؤهم يروّعونهم بالأساطير عنها، يحكون عن رهبان اختفوا في السراديب، وعن أصوات ترتيل تُسمع في الليالي المقمرة، وعن تماثيل تتحرك إن اقتربت منها، فكانوا لا يجرؤون على الاقتراب، وكأنهم أمام بوابة لعالم لا يُفتح إلا لمن فقد عقله أو وجد مصيره.

أما الآن، فقد عاد، يحمل عيون الضابط وعقل المتشكك، لكنه كلما تقدم خطوة نحو الحجارة، شعر بأن الطفل داخله لا يزال هناك، خائفاً، مأخوذاً، ومتورطاً في سحر المكان.

ندى الصباح لمّ يجفّ بعدُ عن أوراق الأشجار المتناثرة حول المكان، والريح التي تهبّ من جهة النيل تلمس جبين محسن ككفّ أم منسية ناعمة لكنها مثقلة بالحزن، مشى بمحاذاة الحجارة القديمة، بعضها مكسور، وبعضها ما زال شامخاً، وكأن الأرض تعاند الفناء وتحتفظ ببعض كبريائها. ظل في صمته كمن يستمع إلى تراتيل خفية تصعد من باطن الأرض لا من فم إنسان.

توقف أمام نقش بدأ له مألوفاً صليب تحيط به رموز غريبة وأشكال هندسية. حاول أن يتذكر ما كانت تقوله عمته ميّاسة عند زيارتها لهم في الخرطوم، حين كانت تقرأ عليهم من أوراقها القديمة، تتحدث بحماسة عن مملكة نوباتيا، عن اتحادها مع مملكة المَقُرَّة، وعن القديسين فيها الذين اختلفوا في مسيحتيهم عن كنيسة الإسكندرية مصر العليا ويبشّرون بديانة الخلاص وسط شعوب النوبة ويكفرون من نادي بالألوهية لعيسى. قالت لهم يوماً إن بعض القرى في الجزيرة ما زالت تحتفظ بأسماء قدّيسين اندثرت آثارهم وان انجيل النوبيين يختلف عن بقية الاناجيل فهو يري في يهوذا المخلص ولعيسي نسل من بشر.

همس لنفسه وهو يتأمل النقش: -

-كأنهم أرادوا للذاكرة أن تبقى، حتى لو فنيت الممالك، كل هذا الخراب، وكل هذه البهاء، في آنٍ معاً

في تلك اللحظة، لمح محسن شيئاً يتحرك خلف شجيرات العشر.. ظلّ خفيف، كأنه انعكاس وهم أو طيف، تشدّد جسده تلقائياً، لم يُظهر ارتباكه، لكنه أحسّ بتلك الرهبة القديمة تعود، الرهبة التي عرفها الأطفال عندما كانوا يتسللون إلى مشارف هذا المكان المحرّم، تذكّر ما قاله أحد الشيوخ ذات ليلة

-في تلك البقعة، الأرواح لا تموت، تُقيم بين الخرائب، وتحرس الأسرار التي لا يجب أن تُقال

وفجاءة ظهر بخيت ود سعدية يتحرك بين الأشجار والخرائب كطفل انفلت من يد الزمن، وجد نفسه في مدينة ملاهٍي من حجر وتراب. كانت على وجهه تلك البراءة العجيبة التي لا تخلو من غموض، يركض ويتقافز بين الغرف المهدّمة، يدخل من فتحة ويخرج من الجهة الأخرى كأنه يعرف المكان من قبل أن يولد، كأن ذاكرةً أقدم من عمره تقوده، لوّح لمحسن بيده ظهر ساعده القوي مثل مصارعي العصور الوسطي وهو يبتسم ابتسامة عريضة، وصاح بصوت كالعصافير بكلام غير مفهوم، نظر اليه محسن، وابتلع ريقه دون ان ينطق بشفه هذا الولد المجنون قد اثار فيه شيء من خوف.

اقترب محسن أكثر، حتى وصل إلى صخرة فريدة، نُحتت بعناية ووضعت كما يوضع شاهد على قبر ملكة. كانت ملساء رغم القرون، عليها نقوش نوبية دقيقة، متشابكة كالضفائر، وفي وسطها كتابات بدا أنها تصف شيئاً مقدساً

بجانب الصخرة، كانت هناك لافتة حديثة نسبياً، ثبتتها مصلحة الآثار، لافتة معدنية نقشت عليها ترجمة لما كُتب على الحجر، بخط واضح كأنه يُخاطب زائراً جاء من آخر الدنيا. قرأ محسن بصوت خافت

هنا، على حدود مملكة نوباتيا الجنوبية، نُقشت الخطايا السبع كما أوردها يسوع في وصاياه الأخيرة

الكبرياء، الجشع، الشهوة، الحسد، الشراهة، الغضب، الكسل.

من وقع في واحدة منها، فقد خسر النور... ومن تاب، وجد الحياة في الأبدية.

توقف قليلاً عند كلمة الكسل، كأنها وخزت ذهنه بشيء مألوف، تذكر فجأة جريمة عباس شرارة، الرجل الكسول الذي وُجد مقتولاً في قوز النائمين، بين عفنه وشرابه لم تكن تلك مصادفة.

أعاد النظر للصخرة، ثم إلى بخيت الذي كان يدور الآن حول تمثال نصف مطمور في الرمل، يهمهم بكلمات غير مفهومة، كأنه يقرأ تراتيل من عالم آخر

محسن أحسّ بأن الزمن بدأ ينعطف، وأن الخطايا ليست فقط رموزاً حجرية، بل خيوطاً تمتد من هذا المكان نحو الجرائم التي وقعت، واحدةً تلو الأخرى. كأن هناك من يُحيي

في الحاضر ما دُفن في الماضي، يعيد الخطايا في أجساد جديدة، أغمض عينيه لبرهة، ثم فتحهما على مشهد بدا له كلوحة حية، النيل ينساب كأنه شريط من حرير أزرق، الأرض من تحته تنزف ذاكرة، والآثار من حوله تنظر بصمت، ومحسن يقف في المنتصف، بين ماض يشتعل بالغموض، وحاضرٍ يسير على شفا جريمة مد يده ولمس الصخرة الملساء كانت دافئَة رغم برودة الصباح أنتابه إحساس بانها حيَّة تتنفس، أو كأن هناك من ينتظر خلف الزمن ليُبعث من جديد، همس لنفسه

-هل الجزيرة تعيد تكرار سقوط المملكة القديمة، ولكن بدمٍ جديد؟

هل القاتل يعيد تمثيل السقوط؟، يبعث الخطايا من قبورها، إذا كان القاتل يعيد هذه الخطايا واحدة تلو الأخرى فهل يعني هذا اننا امام عتبة الخطيئة الخامسة.

افاق محسن من تخميناته وربطه للأحداث أُستيقظ على نداء قديم، التفت خلفه وبدأ يمشي بخطوات مترددة يجمع ما تبقى له من قوة يخاف ان تخذله في منتصف الطريق، تحرك البيت مترنحا يحاول ان يأكد لنفسه انه قد امسك طرف الخيط.

سباق مع القاتل

رجوع محسن إلى البيت، مثل رجو ع نبي من كهف ، غائر العينين، غريب الخطوة، ينوء بثقلٍ لا يُرى، في فناء الدار، كان درار ينتظرُه كصخرة لا تهتزّ، وبجواره ستونا تجلس على الطّوب الطيني كأنها تمثال من خوف، وميّاسة واقفة، شَعرها منثورٌ بفوضى، وعيناها تتقدان بقلق لا يسع الأرض، الزمن منتصف النهار، والشمس في كبد السماء تصبّ وهجها الحارق على الرؤوس، ما إن رأته ستونا حتى نهضت كمن لسعته الأفاعي، صرخت فيه بصوت مفجوع: -

وين كنت؟! كل الوقت دا بدون ما تقول لي زول، الدنيا مقلوبة فوقنا قلنا حصل ليك شيء.

كانت فاطمة واقفة عند باب الحوش، صامتة كالمآتم، وفي عينيها أسرار دموع مؤجلة وعتاب قديم، تنظر إليه كمن يرى عزيزاً يعود من قبر، أقترب محسن تمشي خُطاه وبين قدميه كل أوزار الجزيرة، عيونه حمراوان كدم يابس، لم يجب أحداً، إنما سار ناحية ميّاسة، وقال بصوتٍ غائر كأنما يخرج من بئر: -

-في الفلسفة المسيحية... بتعرفي الخطايا السبع؟

نظرت إليه ميّاسة بدهشة مشوبة بخوف، لم تفهم المعنى، لكنها شعرت أن السؤال يحمل ما هو أكبر من جوابه درار انتفض، ما عاد يتحمّل هذا البرود في زمن النار، صاح فيه بعنف الموج على جدران الطين: -

-يا محسن، يا ود أخوي... الجزيرة كلها عايشة على أعصابها! الموت ياخ بقي ضيف مقيم، وانت من صلاة الصبح مفقود، ما عرفنا خبرك، وجاي تتكلم لينا عن خطايا ومسيحية؟ ياخ حسّ بالناس شوية

لكن محسن لم يغضب، لم يرد، إنما أخذ نفساً طويلاً، كأنما يُنقّي صدره من الدخان، وقال بصوت خافت مشوب باليقين

-انا قربت من معرفة القاتـــــل.

قالها، ثم ترنّح، جسده مثل ورقة جافة تتهاوى من شجرة عجوز هرع إليه درار، أسنده بيده، ومشى به نحو الصالون، بينما ستونا تلحق به، تجرجر ثوبها، ودمعها وخوفها ،ومن خلفها مياسه وفاطمة، محسن كان يحترق من الداخل، حرارة جسده تصعد كأنها نذير، عيناه تهذّيان، شفتاه تتمتمان بكلمات مبعثرة

الشهوة...الجشع .... الطمع .. الكسل...ال...

تسمرت الأعين في وجوه البعض، وبدأ الخوف يسرق مكان الدهشة في تلك اللحظة دخل عم صالحين، وجهه مغبرّ

من الطريق، ومعه ولده سُري، قادم من صعيد مصر، يحمل نظرة مَن تعوّد مواجهة الموت في النيل والغيطان

سُري توقف عند العتبة، والأنفاس معلّقة، وقال بصوت ثقيل

الحاصل شنوا .... محسن مالوا...؟

وما بين الهمس والصمت، كانت الدار تغرق في ثقل لا يُرى... كأنها على وشك البكاء، كأن حل حيطانها سمعت ما لم يقل بعد، قامت ستونا تضمه اليه وحراة الاستقبال من مياسة واخته فاطمة .

كان لدخول سري إلى البيت أشبه بقدوم فارس في لحظة ضياع، شاب في العشرين من العمر، له جسد صلب كأشجار النيل وعينان فيهما بريق وذكاء

تعلّم السياسة من مخالطه المثقفين، وحفظ التاريخ من أفواه العابرين، تشبّع بروح اجداده المقاتلين، حيث الكلمة تُوزن بالميزان والنية تُقرأ من الوجوه

علاقته بالجزيرة كانت قوية برغم سنواته عمره، فمنذ صغره وهو يحتكّ بأهلها بسبب تجارة والده صالحين الممتدة بين النيل وصعيد مصر، وكان يرى فيما يقال عن الجزيرة شيئاً من الأساطير ومنذ مقتل البدري، لم تهدأ حواسّه، شيء ما في داخله كان يتحرك كالبوصلة الى ان غادر الى الصعيد جنوب مصر، لكن اللحظة التي سمع فيها محسن يهذي بكلمات.

الشهوة... الجشع... الكسل، أحسّ أن ما يجري ليس مجرد صدفة، بل لعبة موت تُلعب بإصبع خفي، أقترب من مياسة، عمته، استاذة التاريخ وعاشقة الممالك النوبية، همس لها بنبرة فيها خوف ومعرفة: -

-. في علاقة اكيد بما يقوله محسن والحاصل من قتل

ثم أخذ يغمغم ....

-أيوة، الخطايا المميتة... الغرور، الحسد، الشهوة، الغضب، الشراهة، الجشع، الكسل

هنا تدخل صالحين، وهو يمسح على شاربه الكثّة

-ودا علاقتو شنو بالقتل الحاصل؟ الجزيرة لا فيها قساوسة ولا رهبان؟

الصالون الآن لم يعد مجرد غرفة، بل صار حلقة كبرى، كأنها سَمَرُ العارفين قبل العاصفة، محسن كان ممدداً على عنقريب الجد، جسده ناحل من الحمى، يتقلب بين الغفوة والصحو، ومياسة إلى جانبه تمسح صدرة بزيتٍ دافئ، وقد وضعت على جبينه كمّادات ماء زير بارد، بينما أمامه صحن من القراصة بالعسل والسمن، أعدّته ستونا بيدين ترتجفان أخذ محسن غفوة قصيرة، ثم فتح عينيه بصعوبة، فوجدهم مجتمعين، يسمعون سُري، الذي وقف كخطيب جمعة، صوته هادئ لكن نبرته تقطع السكون

-القتل هنا ما عشوائي يا ابوي دا قاتل متسلسل، ممنهج، فيه فكرة، فيه مبدأ ديني فلسفي مش واضح في السطح لكن مدفون في العمق

أمونه قُتلت، لأنها كانت رمز للجنس والشهوة

قالت ستونا باسي البدري الطفل دا قتلوا لي شنو طيب خليها بت الحلبة قليلة الادب البدري طفل مسكين احي على حشي امو الاتحرق

ردت مياسة هذه المرة وهي تنظر الى محسن الذي بدا بفتح عينه

-البدري كان ضحية الشراهة وحبو للأكل، ذي جاهين جُزت عنقه لجشعة

وحبو للمال

وقف درار ونظر اليها وقال: -

-بعني كدا عايز تقولي لي ان عباس شرارة قتلوا عشان هو بشرب وبسكر

قال سَّري: -

لا ... طبعا ما عشان سكروا و شربوا عشان كسلو انت عارف يا عمي ان

عباس شرارة رب الكسل في الجزيرة، عاش لا بتحرك، لا يعمل، عائش بس على ورثو وايجار الحواشات.

هنا شهقت فاطمة، ووضعت يدها على صدرها

-دي أربع خطايا يعنى في ثلاث جرائم باقية

قالت مياسة وكأنها طلقة أطلقت في الهواء

-لسع باقي الغرور والغضب والحسد

الوجوه تجمّدت، وكأن أرواحهم عرفت أن القادم ليس فقط جريمة، بل نبوءة

محسن استند على الوسادة، صوته خافت لكنه واضح

-القاتل بكتب بدم الضحايا قصة قديمة، قصة فيها خطايا، ويحاول ينقّي الجزيرة على طريقته

سادت لحظة صمت، سمعوا فيها صوت أنفاسهم ثم استطردت مياسة القول

القاتل حسب الفهم المسيحي هو ما بقتل هو بطهر المجتمع ومفتكر نفسو واعظ

فقال درار بعينين تلمعان: -

- انتو عارفين المصيبة في الكلام البتقال القاتل دا معناتا عارفنا، وقريب مننا وفاهم تحركاتنا.

البيت اهتزّ بصمتٍ كثيف، والريح في الخارج كأنها تصفّر بنغمة الحزن، كان واضحاً أن الزمن لا ينتظر، وأن القاتل قد بدأ بترتيل خطاياه، بدماء الناس

خطيئة تحت الجلد

في تلك الليلة التي كان القمر فيها محاقاً، والسماء تحاول أن تخفي وجهها عن الجريمة القادمة، جلس محسن يراقب المعادلة المرعبة تكتمل أمام عينيه كل ضحية كانت مرآة لخطيئة، وكل خطيئة كانت تقرع طبولها داخل قلب الجزيرة. لم يبقَ الكثير، الخطيئة التالية قادمة لا محالة،

البيت الكبير، الذي كان يوماً مأوى دفء، تحوّل إلى خلية نحل مسعورة، تعجّ بالحركة والهمس والظلال. محسن يقود كمن يُمسك بخيط دخان، وسَري يُقلّب في دفاتر الوجوه، ينقب بين الملامح عن أثر لخطيئة ما، ودرار صار ظلاً لنفسه، يتجول كمن فقد البوصلة داخل عقله.

أما مياسة، فقد ذبل وجهها مثل زهرة شربت من ماء مالح، إذ بدأت ترى الخطايا المتبقية ترفرف كأشباح فوق رؤوس من أحبّت. هل يمكن أن يكون القاتل قريباً إلى هذا الحد؟ هل يمكن للشر أن يسكن في وجوه عرفتها بالطيبة؟

اخذو يبحثون في شخصية كل شخص بالجزيرة هل تنطبق عليه ما تبقي من خطايا كانت جلسة أقرب لنميمة منها

لتحقيق، الا انه لم يكن هنالك بديل حتى يتم معرفه الضربة القادمة للقاتل اخذ محسن يدون على دفتره الجلدي ملاحظات ستونا وعمه صالحين ودرار حول بعض شخصيات الجزيرة

صمت حاج صالحين فجأة، كجبل قديم تنبض فيه الحكمة، ثم قال بصوته المبحوح لمحسن: -

-يا ولدي والله الضابط عبد العظيم؟ الضابط هو من الجزيرة، لكن.....

وقبل أن يكمل، قفز محسن من مقعده كمن لسعته نار الجحيم، عيناه متسعتان، وصوته مختنق بالهلع

-عبد العظيم ... نعم عبد العظيم ... الجريمة الجاي الضابط عبد العظيم

ما ان نطلق محسن بتحليله هذا حتى أنطلق درار كالنمر الجائع، لا يرى أمامه سوى فريسة وجب القضاء عليها. خرج من الباب كطلقة نار، وهو يصرخ لكل من يقابله في الخارج

على المركز يا شباب!!!!

على القسم يا شباب!!!!

كان الشباب في الحي يجلسون على نواصي الظلام، فلما رأوا درار يقود كتيبة من الخوف، تبعوه دون أن يسألوا، محسن وسري تبادلا النظرات، ثم لحقوا بهم. قلب محسن كان يقرع

في صدره مثل طبول حرب قديمة، وداخل عقله كانت كل الخيوط تتشابك حول خطيئةٍ واحدة الضابط المتعجرف القادم من الخرطوم متأفف يري في عمله بتلك المنطقة عقاب له، متكبر على اهل الجزيرة يري فيهم تخلف وعدم تحضر.

الساعة كانت تقارب العاشرة مساء، وقت النباطشية الجديدة حين اقتحموا مبنى المركز، كانوا يتنفسون كمن خرج من غرق طويل، فتح العسكري المناوب فمه بدهشة كأنما شاهد شبحاً وهو يطرد اثار النوم من عينيه قال بصوتاً واهن

-في جريمة جديدة ولا شنو...؟

تقدم سري، بعينين تقدحان شرراً بعد ان راي تردد عمه قال بحزم: -

- الضابط المناوب منو ...؟

رد العسكري بعد ان طرد النعاس منه تماماً: - سعادة الملازم عبد العظيم .... موجود في غرفه الاستراحة الان

قال محسن بقلق..

-وين الغرفة ...؟

وأشار العسكري إلى آخر المبنى

بدأت جموع الشباب تتساءل؛ -

-في شنو يا درار ...؟ ورينا الحاصل -

صرخ درار فيهم فقد كان يرجف من الانفعال: -

-في جريمة حتحصل لازم نحصله

وقف العسكري وانضم اليه بقية العساكر الذين في عنبر القسم وبدوا يستفسرون: -

-جريمة حتحصل وين يا زول هنا في القسم ...؟

لم يجاوبهم أحد هرول محسن وسري وخلفه البقية بقيادة درار الى الغرفة التي أشار اليها العسكري طرق درار الباب بعنف، ردّ عليه الصمت. طرق مرة أخرى... جاوبهم صوت مكتوم، كأن أحدهم يخنق بالهواء: -

اندفع هذه المرة بعض العساكر يحاول كسر الباب، فتقدم معهم سري بكتفه القوي، ودفعوا الباب بقوة

وانفتح..... او انكسر .....

لكنهم لم يدخلوا غرفة، بل دخلوا تابوتاً من الرعب

كان الضابط عبد العظيم معلقًا من السقف، يتدلى بثيابه العسكرية الكاملة، مثل مشلعيب علّق لحفظ الخطيئة لا الطعام تحته كان مذبحٌ بدائيّ شموع تتراقص كألسنة شياطين، كوب فخاري مملوء بدم ديك مقطوع الرأس، وصلبان مقلوبة، وورقة كتب عليها بخط غريب

هذا جسده، وهذه خطيئته انت تعرفها.

شعر محسن كأنه هو المخاطب كان نفس الخط الذي كتبت به الرسالة الغامضة التي وصلته في الخرطوم

اختنق الهواء، بل تجمد، صلب الغرور في صمت مهيب وعلى مذبحه بعثت الخطيئة الخامسة، الانفاس اختفت من الصدور، وكأن الموت نفسه ينظر إليهم مبتسماً من سقف الغرفة

صاح العسكري وهو يرتجف: -

-يا ساتر يا ساتر يا رب

أما محسن الذي كان قاب قوسين او دني من ان ينقذ القتيل وقف كتمثال حجري، لا صوت ولا حركة... ثم قال بصوت خافت يشبه نزيف الجرح

باقي خطئتان.

بين القلق والوشاية

بعد ساعات من مقتل الضابط عبدالعظيم، كان درار وسُري ومحسن يجلسون في غرفة ضيقة بالمركز، العيون مسلطة عليهما، والهمس يدور خارج الأبواب كأن الجدران تنقل الاتهام قبل أن تنطقه الأفواه، كيف عرفوا بالجريمة

لم يكن أحد يعلم ماهي الحقيقة التي جعلتهم يقولون بان هنالك قتيل في مركز الشرطة، دارت الشكوك حولهم. كان درار يعلم أن الظلال أحياناً تُخفي ما هو أوضح من الضوء، لذلك لم يتبرّم حين أحاط بهم العساكر كمن يصطاد طيفاً لا شخصاً. لم يكن اعتقالاً، بل طقساً غامضاً من الشكوك، وكأن كل شيء في الجزيرة صار يعاقَب حتى على الصمت

درار اختار أن يتحمل الشبهة عن طيب خاطر، حاول ان يغطّى على انسحاب ابن أخيه محسن في اللحظة الأخيرة، بمساعدة بعض أصدقائه، خوفاً من أن يُزج اسمه في دوائر التحقيقات المتربصة، ولكن العساكر استطاعوا ارجاعه مره اخري إليهم

لم يكن الفجر قد برق، حين انفتحت أبواب الغرفة على وجوه أنهكها السهاد، وضمائر تقف بين المطرقة والسندان لم يُسأل

درار، ولم يُجب سري ووقف محسن صامتاً كصنم، لكن العيون كانت تسأل، والأرض تحت أقدامهم تهمس بشيء ما... شيء لا يُقال، لكنه يُشمّ في الهواء.

في ركن معتم من دهاليز المركز وبعيدا عن اعين العساكر اقترب الصول عابدين، له عين كأنها تعرف متى يُكذب القلب ولو صمت اللسان مال الصول على أذن درار وهمس بكلمات كادت تخلع قلبه بعد ان أشار الى محسن.

-النسيم بيجيب سيرتو

فهم درار أن النسيم الذي يتحدث عنه ليس من عند الله، بل من جهة تأتي منها الرياح ولا يُستبشر بها. وتأكد أن اسم محسن صار يطفو على سطح ماء راكد منذ زمن، وأن القضية التي دفنت في الخرطوم، ما زالت أوراقها تتنفس تسارعت نبضات درار، ليس خوفاً على نفسه، بل على ابن أخيه الذي يرى فيه ظل شقيقه الراحل، وصورةً من المستقبل الذي لم يكتمل الا انه تجلد لكي لا يثير قلق الاخرين.

قبيل الفجر بلحظات دخل درار ومعه سري ومحسن وصالحين إلى مكتب الضابط محمد إسماعيل، المصباح الزيتي يتأرجح كأنه في حضرة أشباح،

الإضاءة تعكس وجوهاً متعبة وأعيناً مسهدة جلس الأربعة، وفيهم من يحمل الحقيقة كجمرة، ومن يحاول أن يخفيها بكمّ القش، رفع الضابط بصره، التقت عيناه بمحسن وفجأة وقف

الضابط وأدى التحية العسكرية ثم صافحه بحرارة كمن يزيل بينهما جداراً من الصمت قال له: -

-تصدق عرفتك من اول ما شفتك سعادة النقيب، لكن اعذرني فبعض الأسماء لا ننطقها امام اذان لا تصون

بدأ الارتياح على الجميع ، بالأخص عندما وضح الضابط ان امر محسن كان محسوم منذ الاسبوع الأول لوصوله للجزيرة وصلت إشارة من الداخلية تستفسر وصل الضابط المطلوب الى مسقط راسه كأحد خيارات الهروب لديه الا انه المركز رد بان المواصفات المرفقة على الإشارة لا تنطبق مع أي من مقيمين ناوا، وغطت سلسلة الجرائم على أي حدث اخر ، سال الضابط درار كيف عرفت بان هنالك جريمة في المركز ، ترك درار الفرصة لمحسن ان يجاوب على سؤال الضابط ، استعدل محسن في جلست وانطلقت منه الحكاية كأنها تتسلل من باب خلفي، لا تطرق الأبواب، بل تتنفس في الصدور. حكى عن الخطايا، واحدة تلو الأخرى، حتى بلغ الخامسة الغرور وبعد تحليل شخصيات الجزيرة وجدوا انها تنطبق على .... لم يستطيع أن يسمي صاحبها. اكتفى بأن قال:-

-في الجزيرة... الغرور ما بتلبس كثير وشوش، وشّ الغرور هنا واحد وعالي الصوت.

أومأ الضابط، كمن يفتح كتاباً قديماً وجد فيه إشارة مهملة لم يناقش، بل بانت علامات الجدية عليه كأنه يسترجع تحليلات محسن لم تمضي لحظات حتى بدأ كأنه اقتنع بما قاله وقف وادي

التحية العسكرية وشكر محسن على تلك الإضاءة وقال: - ممكن تغادروا الان لدي بعض الإجراءات فمقتل ضابط شرطة داخل مركز البوليس امر سوف يقلق الداخلية على ان اذهب للمستشفى لمعرفه تقرير الطبيب الشرعي واعد تقرير وقائع مسرح الجريمة ويتم ارساله لرئاسة الإقليم على ان نلتقي لاحقا لدراسة القضية سعادة الضابط .

انتهى اللقاء، وغادروا، المركز يئن من وقع الأقدام، شمس الصباح تنسلُّ من خلف الجدران كخيوط مغزولة من قلق. في الخارج عدد من أهالي الجزيرة ، العمه ستونا كأنها تقرأ الطالع في وجوه الخارجين، ومياسة تمسك بطرف الحديث دون أن تقول حرفاً

كان القلق واضحاً في العيون المرتبكة، والمشي المتردد ما ان راتهم حتى قالت: - - --أن شاء الله خير

رد سري مبتسماً: -

- اطمني الريح ما بتكسر الشجرة إلا لو كانت الجذور فاسدة جات سليمه الحمدالله.

توجهوا وسط الجزيرة، حيث ذهب درار إلى المسيد يطلب صفاء من بين صفحات القرآن يغسل قلبه بما تبقي له من يقين، بينما دخل محسن البيت تتقدمه مياسة وخلفهما عم صالحين، والعمة ستونا تلحق بهم، تمسح دموعها بطرف ثوبها الأبيض كأنها تمسح عنهم ذنوباً لا تعلمها.

صلاة على شرفة الحكاية

فجأة، ودون أن ينذر شيء، أسكت عم محسن الكلمات في حلقه كما يُسكت المؤذن نداءه عند حلول الأذان. رفع بصره إلى ساعة الحائط، كانت الشمس في انسحابها الأخير، تتهادى نحو حافة الغرب، وتسكب آخر شعاع لها على طرف الستارة، فغمر الصالة ضوء خافت مائل إلى الحمرة، كأنه دم ينسكب من خاصرة النهار

قال عم محسن بهدوء يشبه هيبة المساجد القديمة

العصر ...صلاة العصر

وقف، وتبعه الصمت، كأن الجميع استيقظ من نشوة طويلة كانت قصة الجزيرة قد مدّت جذورها في ارواحنا، وامتدت أغصانها إلى مساحات الخوف والدهشة داخلنا، حتى أن الزمن بدا كأنه انكمش ليمنحها المساحة لتورق

كنت أحس بكف شاهيناز على يدي، تبسط أصابعها كأنها تستجير بي من رعب لا يُرى، كلما انكشفت بشاعة جديدة في تلك الجرائم حتي جيهان، لم تكن تحيد هذه المرة

نظرها عن والدها، كأنها تكتشفه من جديد او كأنها ندمت ولم تسمعه من قبل، كنت انظر لآسيا، التي علّقت دموعها مؤقتًا، وجلست كتمثال من فضول، عيناها تتقلبان بين وجه الراوي وبين الظلال، كأنها تحاول أن تسبق السرد للقاتل الحقيقي.

قمنا جميعًا نتأهب لصلاة العصر، فالأفق بدأ يميل إلى حمره باهتة، والنهار يجمع ثيابه ليستتر، فتحت النوافذ، فدخل ضوء المغرب مثل خيوط مسترسلا، تتراقص على أرائك الهول، بعد الصلاة خرجت الى مدخل الفيلا

أردت أن أستنشق شيئاً من هواء صلالة، ذاك المزيج الغريب بين طراوة البحر وعبق اللبان الظفاري، كأنك تمشي في غابة بخور..

كان أحمد واقفاً عند الشرفة، يدخن سيجارة بهدوء رجل يعرف خطيئته، عرض على واحدة من علبة (ال ...ام) بيضاء قليلة النيكوتين

ترددت لحظة ... فقد هجرت السجائر منذ زمن، لكن لرائحة الدخان في جو صلالة سحر لا يُقاوم، كأنها تعزف على وتر قديم في صدري

أخذت السيجارة، لامستها بيدي فقط... وفي اللحظة ذاتها، انقضت شاهيناز عليّ كما ينقض صقرٌ على أرنب مرتجف، ووراءها كانت جيهان تصرخ في أحمد

كيف تعطيه سيجارة وهو عنده ربو

وانشقت السماء بغضب عارم لم أكن اعرف خطيئتي من بين الخطايا السبع المذكورة في القصة.

رمت شاهيناز كل لومها على كأني طفل لا يعي خطر اللعب بالنار

كانت تعاتبني بلهجة أمّ تعاتب والدها الصغير، وتضمّن كل كلمة رعباً، وحزناً، وحباً

تجمد أحمد، وسقطت علبة السجائر من يده، هرب إلى خارج المنزل، خائفاً أن تلتقط أمه أو أبيه خبر تدخينه، كأنه ارتكب خطيئة تُحكى في المجالس

اما انا قد رميت السيجارة على ارض الحديقة ولم ألمسها

سحبتني شاهيناز من يدي مثل سجان يقتاد مذنباً، وجيهان تتوسل إليها من شرفة الغرفة العليا

-ما تخليه مع أحمد، الولد ده عنده أزمة

خجلت، كأن روحي مكشوفة أمامهم جميعاً

لكن آسيا لحقتني اخذت تربت على ظهري وتبتسم لي برقة وقالت

-أرجوك يا عثمان... الأزمة ما لعبة

أحنيت رأسي وابتلعت ريقي بعد ان جلسنا امام مدخل الصالة على الدرج

في تلك اللحظة، كان الغروب يرسم خطوطه الذهبية على حديقة الفيلا، المطر الخفيف يبلل الزهور، ورائحة الأرض تتصاعد كأنها صلاة خفية

دخلنا لأداء صلاة المغرب وقف عم محسن في المحراب المؤقت واحمد عاد وعينيه ممتلئتان بندم صامت، قلبه مشغول بخوفٍ لا يعرف له اسماً

بعد الصلاة، التففنا حول فناجين القهوة السودانية البخور اشتعل في المبخرة الفخارية، واختلط عطر اللبان مع بخور الجوري الحبشي، فصار الجو مثقلا بالعطر والحكايات، وفى داخلنا كانت رغبة تريد ان تعرف من القاتل

بدأت آسيا تخمّن لعل الجزيرة مسكونة بروح سحرة شريرة اول لعل القاتل راهب منذ زمن الممالك ظلت روحه تحوم حول الاثار القديمة، حاولت جيهان

وبحذر أكاديمي، تقرأ ملامح الجرائم كأنها فصول تاريخ، شاهيناز، كانت صامتة لم تتدخل نظرت الى وقالت همساً: -

-لعل القصة تفقد حبكتها الرواية إذا عرفت النهاية قبل أوانها ...

وهكذا نامت ظلال الحكاية على أكتافنا، وبقي القاتل في دهاليز الظنون، يسير بين الكلمات، يضحك منّا، وينتظر أن

ننطق باسمه

بدأ عم محسن السرد، وصوته يخرج من قاع روحه كأنما ينزف من ذاكرة قديمة، ذاكرة غطّاها النيل حيناً، وكشفها حيناً آخر. الليل تمدد على مدينة صلالة كعباءة ساحر، والسماء رشّت رذاذاً كأنها تغسل القلوب قبل أن تُكشف الأسرار قال:-

لم تكن الجريمة الأولى إلا همسة في أذن الشيطان... والثانية كانت أول شهقة للخطايا، أما الثالثة فقد ابتسم فيها الموت، والرابعة كانت لعبة شيطان وبقيت الخامسة انتقام مجنون مشى حافياً بين النخيل

صمت عم محسن قليلاً، اخذ ينظر في الوجوه التي تسمر عليه، كنت أحس بكف شاهيناز تبسط اصابعها على يدي كأنها تستجير بي من رعب لا يري وعم محسن يتابع قائلاً ...

القاتل... لا يمشي في الظلام، بل يختبئ في الضوء. يُصافحك بنظرة وديعة، ويطعن بروح باردة

الوجوه من حوله تجمّدت كأنما الزمن نفسه توقف ليستمع والقصة انفلقت على نفسها لتفتح باباً ما كان أحد يظن أنه موجود، باب لا يُفتح إلا برائحة الدم وذكرى لا تنام ولم يكن الليل إلا شاهد صامت على ما كان وما سيكون.

من قبل ان يطفا الحسد

مرت الأيام في الجزيرة كأنها تسحب أذيالها من رمال ثقيلة، كئيبة الصدى، لا يكاد الليل يغادرها حتى يعود على هيئة كابوس، الخوف صار ضيفاً دائماً، يجلس في كل بيت، يتكئ على الجدران، ويشارك أهل الجزيرة صمتهم وتوجسهم.

منطقة الجنائن التي كانت يوماً مهرباً لعشاق النخيل، تحولت إلى ثكنة عسكرية تشتعل فيها نار مع المغيب حتى الصباح، وعيون الشرطة لا تغفو، فرض الضابط محمد إسماعيل حظر تجوال إجباري؛ خوفه تحول إلى قانون، وقلقه إلى أوامر كان الرعب يسير في الأزقة مثل ريح بلا جسد، في ظل هذا الظلام، اجتمع محسن، درار، مياسة، وسري بالصالون القديم في محاولة لفك شيفرة الدم مياسة فتحت كتبها القديمة، تنبش في رؤى المسيحية حول خطيئتي الحسد والغضب ، صاروا مثل فرقة صغيرة في متاهة يبحثون عن مخرج يتتبعون انفاس القاتل، انضم اليهم الضابط محمد إسماعيل وقد نزع عنه بذلته الرسمية وصار واحد منهم مجرد انسان يطارد شبح في جزيرة منسية .

مرت أربعين يوماً منذ مقتل عبدالعظيم، وكان الضابط محمد إسماعيل صار يشك في سكان الجزيرة أصبح الشك ملازمه مثل ظلة كان مثل المجنون يفتش عن القاتل في عيون

الناس كأنه يقرأ في كتب سوداء.

محسن لم يذق طعم النوم، وصار يفكر في الذهاب إلى منطقة آثار المماليك، كأن في تلك الأرض القديمة سراً دفيناً يُضيء الحاضر المعتم أخبر سري ومياسه وانتظر عودة درار من السوق الجزيرة لم تعد مثل ما كانت، دخل الشتاء الجزيرة كجنازة صامتة، يجر خلفه ليلاً أطول من الخوف، وأبرد من جنازة خرجت روحها في القطب الشمالي، برد يشق العظام وفى ظله يتحرك القاتل كطيف لا يراه الا من كتب عليه الموت

في مساء شتوي موحش، جلسوا يتسامرون قرب الكانون بالغرفة قرب المطبخ، الرياح قادمة من الجنوب ببروده مثل نار تحاول أن تهزم خوفاً لا يُقهر، مذياع العمة ستونا يبث نشرته المعتادة عن صراع القوى العظمى، الاشتراكية والرأسمالية، حين طرق الظل الباب دون طرق ظهر بخيت فجاءة كأنما خرج من بين السحب، أو انشق عن ركن مهجور من السماء

صرخة مكتومة خرجت من فاطمة، وقفز درار كما لو باغته لص، محسن تشنج في مكانه، ومياسه غمست عينيها في ذهول كأنها رأت شبحاً من سفر الغيب.

ظهر بخيت ود سعدية، بملامح لا تشبه الناس، وبكلام كأنما يُترجم عن لسان الجن

خطف كورة الحليب وشفطها في بق واحد، ثم أشار بيده إلى ستونا كأنه يتسول دفئاً، لا طعاماً

درار سبّه في سره فقد خطف قلوبهم رعب، ستونا نظرت إليه بعين أم لم تنسَ اجلسته بالقرب منها سقته حليب بالتمر، جلس قربها كمن يُسقي ذكري لا تمحي قط قالت بدموع متدفقة بحنان بالغ مصحوب بشفقه: -

-بخيت دا... إتولد في نفس اليوم مع سُّري. سبحان الله، أم فاطمة المرحومة وسعدية كانوا روحين في جسد واحد

نظر محسن الى ستونا واطال النظر الى بخيت وقال

-ام سري وام بخيت كانوا صاحبات والله بتذكر الكلام دا للان سعديه دي كانت جميلة جدا فيها من عرق الاحباش

نظر اليه درار وقال جدتها لأمها كانت (سريه) لي عمك حماد ود الزين

نهرتهم ستونا قائلة:- الكلام دا لزوموا شنو هسه بلا شغله معاك

في هذه الاثناء وبعد شبع واخرج صوتا من جوفه قام بخيت وخرج كمن يتبع نداء لا يُري، الجو خارج الغرفة شديد البرودة لحقت به مياسة وناولته ملفحة دمور كبيرة لفتها له حول جسده كدرع يقيه لظي البرد، مضي في خطي غريبة في ليل اعمي ، لم تمضِ لحظات حتى انفتح باباً من فضول دخل منه عم صالحين، وقد ارتسم على وجهه شيء من الذهول المتأخر، قال بصوت مبحوح كمن خرج تواً من حلم سيئ

انتو... بخيت ود الجن دا، كان معاكم هنا؟

رفع درار رأسه، وبه بقيّة رجفة لم تهدأ بعد، وقال

-ايوة!!! مالو...؟

هزّ صالحين رأسه، واقترب خطوة، ثم قال وهو يمسح عرقاً ما كان للبرد أن يسببه

-الولد دا ظهر لينا فجأة في نص الزقاق... زي شجرة العشر المشتعلة في جهنم... والله يا جماعة، خلى الرجال بشنبات يتراجفوا زي نار القصب فوق القيف

أشار بيده وهو يضيف..

-قرينا قرآن الدنيا والعالمين قبل ما نعرف إنو دا بخيت ود سعدية

تسلل الضحك المكبوت من بين شفتي فاطمة، كأنه يطلب الإذن ليكسر هيبة الرعب، وتبعتها مياسة بقهقهة خفيفة كأنها ضحكة فوق هاوية، أما محسن، فاكتفى بابتسامة باهتة، لا تدري أهي سخرية من الموقف، أم خوف يلبس وجه الطمأنينة، كان الخوف لا يزال في الغرفة، يتلفت خلف الستائر، لكن لحظة الضحك تلك كانت كندبة على وجه الرعب تُذكر بأنه، حتى في حضرة الجن، يبقى الإنسان ابن النكتة والبسمة والدم الخفيف

قال درار، وهو ينظر حوله بقلق كمن فقد ظله

-معقولة الولد دا مفكوك كدا في جزيرة الجن؟ في أي حتة تلقاه... معقول القاتل ما شافه؟ ولا هو ما شاف القاتل؟

وقع السؤال على أذن محسن كسهم من ظن قاتل، شق قلبه المفتوح على الهواجس، وترك فيه صمتاً أشدّ من الرد حاول ان يقول شيء في اللحظة ذاتها، جاء صوت عم صالحين من خلفهم، هادئاً كمن يفتح باباً لم يُطرق منذ زمن

انتو... سَّري وين؟ مالو ما معاكم؟

تجمّد الهواء، التفتت وجوة الجميع كأنها كُسرت في منتصف دهشتها، وقالت مياسة، بعينين ضاقتا حتى أصبحتا شرارتين من خوف

-كيف يعني سُري وين؟ هو ما معاك؟ من العصر ما شفناه

جاء رد عم صالحين مثل صفعة في ليل مظلم

-لا... ما شفتو اليوم دا كلو... ما قابلت سَّري

في تلك اللحظة برد الجزيرة صار أشرس، والظلام أعمق كأن الليل نفسه بلع الإجابة

قفز درّار من مكانه كمن لدغه عقرب خرج من جوف جهنم، لم يتوقف لحظة ليلتقط أنفاسه، بل اندفع نحو الصالون في طرف البيت، كما تندفع الأرواح الهاربة من أجسادها حين

يداهمها الموت في نومها قفز محسن، يركض حافياً يحمل الرتينة كما يُحمل السراج الأخير في ليل اجتمع فيه كل ظلام الدنيا من خلفه كان صوت العمة ستونا يشق جدار الريح، كان نداؤها يصارع عاصفة من جليد، يخرج من صدرها مثل أنين الأرض حين تمخض عن زلزال

-شوفوا سَّري في الصالون .....

عم صالحين ارتج جسده كما يرتجف الحطب حين تلسعه النار لأول مرة، ثم همس بصوت بالكاد خرج من فمه اليابس

-ممكن... ممكن يكون سَّرّي مع ناس الحاج ضرار في المستشفى... وأنا ما عارف

لكن صوته ضاع، مثل ورقة ذابلة قذفت بها الريح في بئر لا قرار له

ركضت مياسة نحوهم نحو حوش الرجال حيث الصالون وعيناها تشاهد شيئاً لا يراه سواها أشباحاً تتحرك بلا ملامح، أطياف تتمايل بين النخيل والظلال، والنخلة الكبيرة في وسط الحوش القديم قد مالت بجذعها كأنما تنحني خوفاً من القادم

الهواء محمّل برعب لا يُرى.. والريح تصهل، تصرخ تئن وكأنها تفتح باباً من أبواب العالم السفلي تخرج منه اسراراً لا ينبغي لها ان تُعرف

فزعٌ مكتوم تسلل إلى جدران البيت، ارتعدت النوافذ،

وارتجت الأبواب،

وصوت ستونا عاد من جديد، وهو يتمزق

«يا ربي... وين سُرّي؟»

وقف محسن ودرار داخل بطن الصالون الرتينة ترتعش في يده كأنها على وشك أن تنطفئ، نورها يزحف بخوف، لكن الصالون فارغ، ليس فيه غير الصمت الثقيل، وصدي الانفاس المتقطعة، هناك... في زاوية الظلمة، كانت فردة الدمور، تلك التي كان بخيت ود سعدية يلف بها جسده مثل كفن لقيط، تتراقص وحدها، ترتفع ثم تهبط كما لو أن روحاً شريرة تتقافز داخلها كجني يُؤدِّي طقساً وثنياً وكلما تحركت، تخلّف خلفها ريحاً ساخنة، تفوح منها رائحة تراب مقبرة حديثة الحفر ، كانت قطعه الدمور مُعلّقة على الجدار بعودي قصب معقودين بحبال نخيل يابسة، كأنها صُلِبَت هناك منذ ألف عام، دخلت مياسة، وجدتهم جامدين كأن على رؤوسهم الطير.

نظر ثلاثتهم إلى ثوب الدمور كأنهم يواجهون وحشاً خرج من خرافات الليالي الطويلة في خارج الصالون كانت فاطمة تبكي في حضن ستونا، وأشقاؤها الصغار يرتجفون في حضنها كفراخ بلّلها الشتاء والعم صالحين خذلته قدماه، فجلس على الأرض بالحوش وهو يردد

سَرّي... وينك يا ولدي...؟ سُرّي لقيتوهو ؟

صوت الرياح تعاظم صار كأنها لُغة الشياطين نظر عم صالحين الى اعلى مخاطباً رب العالمين لطفه فرأي القمر قد غاب، بل تمزّق، وتفتّت في السماء مثل مرايا الحظ السيئ الليل كان كثيفاً، ثقيلاً، كأنه جنازة معلّقة.

لم يكن في الغرفة ضوء سوى ظلال متراقصة من الرتينة التي يحملها محسن ، كأنه نفسُ ميت عاد يتحسس أطراف حياته اقترب مرتجفاً من قطعة الدمور رفع طرفها كما يُرفع الغطاءِ عن قبر قديم ودرار يقف منتصف الصالون، يتقدّم خطوة ويتراجع خطوتين، كأن قدميه تخونان رجولته خوف ان يكون سُري راقد خلفها اخذ يتنفس بصوت مسموع، وعيناه لا تتوقفان عن الدوران في الجدران التي بدت وكأنها تنكمش عليهم اقترب درار من محسن، والريح تسري من نافذة مشقوقة، تحمل معها رائحة تراب مبلول بالحقد

مدّوا أيديهم في ارتباك، فردّوا قطعة الدمور كمن يرفع الستار عن لعنة قديمة توقفوا برهة، لا لأن الخوف قيدهم، بل لأن ما كُتب على القطعة كان أثقل من الرعب نفسه الكتابة كانت تنزف حبراً أسود كأنه دَم يابس، وكأن اليد التي خطتها كانت ترتجف تحت عذاب لا يُرى

اقتربت مياسة، عيناها تومضان بدهشةٍ عالمة، وكأن شيئاً من التاريخ استُدعِيَ للتو من رماد القرون

"עֲוֹן־קִנְאָה תַּפְקִיעַ דָּם, וְהַמְּחֻשָּׁךְ יִפְתַּח לְרֶעַ שַׁעַר."

لـم يفهمـوا الكلمـات، لكـن زمهريـراً خافتـاً مـرّ عبـر عظامهـم الحـروف تبخّـرت إلى صقيـع، ودخلـت أوردة القلـب دون استئذان

قالت مياسة، وهمسها مزيج من الرعب والمعرفة

-دي كتابة عبرية... من طقوس الظلال

ثـم صمتـت لحظـة، تغـوص فـي ذاكـرة الكتـب والرمـوز والنصـوص المنسـية، قبـل أن تهمـس

معناها... إن الحسد فجّر الدم، والظلمة فتحت بابها للشر

أسـفل العبـارة، كانـت الرمـوز كأنهـا شُـوِّهت عمـداً نقـوش نوبيـة مكسـورة، عيـن مشـقوقة إلى نصفيـن، ووشـم بلغـة تُنكـر الزمـن

فـي قلـب النقـش، عبـارة مثـل زمجـرة أنـا مـن يحسـد، أنـا مـن يقتـل

تنهد محسن، كمن رأى ظلاً مرّ من أمامه وقال

-دي ما قطعة دمور... دي لعنة ملفوفة في قماش

درار، وقـد جـفّ ريقـه، أحـس بثقـل فـي صـدره، كأن العبـارة خرجـت مـن فـم جُـرح لـم يُغلـق منـذ عصـر المماليـك قـال

-هذا ليس تحذيرا... بل كانت تهديداً بالقتل

حـلّ السـكون، كأن المـكان دخـل محـراب خوفـه، وعيـون مياسـة تنهمـر علـى سَـرى كالمطـر قبـل الطوفـان، مـن خـارج

الصالون، حملت الريح صوت عم صالحين، يهمس كأنّه وحي

-الحسد ما بسكن في القلب ساي... الحسد بيت، وضيفو دايماً الموت

دخل عم صالحين الى الصالون تتبعه الظلال... أولاده وستونا كأنهم أرواح خرجت من مقابر الحيرة، الرتينة تلتهب على الطاولة كقلب مذبوح يضيء لحظاته الأخيرة

في الخارج، المطر يكتب بلغة لا يفهمها سوى الغائبون، والرعد يشق حجاب السماء وكأنه يُعلن بداية طقس أسود

قال درار، وظلّه يتلوى على الجدار كأفعى ضلت جحرها

-يعني شنو الحاصل دا؟ وسَّرى... سَّرى وينو؟

قبل أن يجيبه أحد، سبقت دموع مياسة صوت الرعد، تناثرت على خديها كاعتراف مأساوي. كان ابن أخيها لا يزال طيفاً غائبا منذ عصر اليوم

الأسئلة مثل السم تزحف في العقول.. هل اختفي ...؟ هل اختطف ..؟

أم أنه لم يكن هنا أصلاً؟ كأن حضوره كان وهماً رُسم بالحنين واختفى كأحلام المطر

صوت النحيب تصاعد من ستونا، وفاطمة تتلوى وتشهق، ودرار يحدق في الفراغ كمن يبحث عن ظِل لروحه في ليلة مرعبه

محسن ظل صامتاً كمن يستمع إلى أغنية قديمة تعزفها الذاكرة من وراء جدار الخوف

كانت قطعة الدمور أمامه، كأنها مخطوطة من عالم آخر

اقترب و، همس لمياسة، وصوته يقطر شؤماً

-ترجمي... ترجمي الكلام المكتوب دا... تاني

قالت، من خلف ستار الدموع، والمطر يصيح فوقهم كأن السماء تصرخ بالنيابة عن الأرض

الحسد فجّر الدم... والظلمة فتحت بابها للشر

تنهد محسن، وفي عينيه لهب خفيّ، وقال بصوت حاد كحد السكين

ـ سُرى... أُختطف. وأنا عرفت القاتل المتسلسل الفي الجزيرة الرسالة مكتوبة بخط الحسد

ارتفعت صيحات ستونا كندبة قديمة خرجت من قاع القلب، وفاطمة تمزق الهواء بصراخها

ـ واااااي يا سُرى... يا ود خوي... يا الله...

رفع صالحين يديه للسماء، لا يدري إن كان يدعو أم يستسلم

أما درار، فقد انفجر صوته بغضب لم يعرف له اسماً

-حسد شنو يا محسن يا ود أخوي؟ سُرى ما بحسد زول

ردّ محسن دون أن يلتفت، كمن يرى ما لا يُرى

-سُّرى ما الحاسد... سُرى هو المحسود

ثم التفت إلى ستونا، وحدق في عينيها كأنه ينبش في ذاكرة الجزيرة

ـ الحاسد... هي سعدية أم بخيت

ارتبكت الوجوه.. وقع الاسم في اذانهم كسخرية سوداء او كحجر في بئر ساكن.

إلا مياسة انحنت على يد محسن وهمست

ـ تقصد... سعدية حسدت سَّرى عشان هو نديد لبخيت؟

أومأ محسن ببطء وواصل قائلاً

ـ والنقطة الأخطر... ما في زول في الجزيرة بيفهم العبرية غيرك، يا مياسة، بحكم دراستك... وسعدية، جدتها لأمها كانت من اليهود الفلاشا

ثم أكمل، كمن يسلخ حقيقة باردة

ـ القاتل... هو سعدية.

نظر إليه درار مشدوهًا، كأن لسانه ابتلع الحيرة

-كيف يعني؟ سعدية؟ آخر مرة شفتها... كانت ست كبيرة، جسمها هزيل، ما بتشوف كويس

يعني معقول تكون هي ورا موت أمونة؟ جاهين؟ البدي؟ عباس؟ والضابط؟

دي ما عندها قوة تذبح حتى طير

لم يرد محسن، بل خرج من الصالون، ينظر إلى السماء التي هدأ مطرها إلا من قطرات قليلة، تتساقط بإصرار... كأنها ترفض الموت في جوف الغيم

ثم قال بصوتٍ يسمعه المكان

ـ القاتل الحقيقي يا درار... هو بخيت والمدبـــر سعدية

تجمد الهواء، خرجت همهمات من مياسة، وستونا، وحتى الرتينة خفّ ضوؤها كأنها سمعت النبأ سال دعاء الرحمة من فم عم صالحين، وكأن قلبه انكسر في صمت لا يُرمم

وقف درار، تائهاً بين ما يعرفه وبين ما لا يريد تصديقه

محسن أكمل، والنقوش في يده ترتجف: -

ـ ما عندنا وقت، وعلى حسب الرموز النوبية المكسورة في قطعة الدمور، والعين المشقوقة نصين أعتقد... عرفت سُرى حيكون وين

صالحين صرخ، كمن رأى ولده في كابوس

- وين؟؟؟

قال محسن، ونظره غائر في المجهول

- في منطقة انحناء النيل... عند الآثار القديمة، آثار الممالك المنسية

همسات الجحيم

في عمق تلك الليلة، حيث صمت النيل صار أثقل من الطين، كانت الأرواح ترتجف دون أن تلامسها يد، الكانون في وسط الغرفة الرتينة في وسط الصالون اطفات ضوءها، وكأن النار نفسها خافت من البقاء، بينما توزعت العيون بين النوافذ والشقوق، تترقّب، صرخة طير مجهول المصدر شقّت العتمة، فارتجّت ستونا، وضمت الصغار إلى صدرها كأنها تردّ عنها لعنة معلقة في الهواء

مياسة قرب الباب الصالون، كأنها تحرس حزناً قديمًا عاد من الموت. وجهها شاحب كوجه تمثال نُسي في معبد متهدم، وعيناها تحدقان في الفراغ كما لو أن الزمن توقف داخلهما

فاطمة تمتمت بآيات من كتاب الله، لكن الكلمات خرجت مرتجفة، وكأنها تعبر من جسر مكسور فوق هاوية الجن، الريح أخذت تلفح جدران البيت وتصرخ بين سعف النخيل، تحمل معها صدى خطوات غير مرئية، وكأن أحدهم يطارد أحداً آخر في قلب الظلمة أما عم صالحين، فقد كان يجلس بالقرب من ستونا، رأسه مطأطئ كمن يصغي لهمسات تأتي من جوف

الأرض في عينيه لم يكن الخوف فقط، بل شيء أعمق، وجع الأب حين لا يملك سوى أن ينتظر، في تلك الليلية لم يكن أحد ينام. حتى النيل بدا مستيقظاً، يهمس بسر لا يُفصح، كأنه يحفظ في أعماقه خطيئة لم تُكفَّر بعد، خرجت الجزيرة عن بكرة أبيها كما لو أن طبول القيامة قد قرعت في قلبها ،درار، الذي ما عرف النوم من ليلة، تسلّل إلى الميكرفون الذي كان يصدح منه الأذان، لكنه هذه المرة لم يدعُ للصلاة، بل نادى بنداء يشبه استغاثة الغريق في لُجة الموت ،أصطف الناس في المسيد، وجوههم مبلّلة بالنعاس والحيرة، رجال في جلابيب غير مكتملة الأزرار، أطفال مختبئون خلف ظهور أمهاتهم، ونساء يبكين بكاءً مكتوماً، كأنّهن يعرفن أن في رحم هذا الليل كارثة ستولد.

المسيد، بهيبته البسيطة بناء طيني ذو قباب متآكلة، صار كقلب قديم يخفق برعب الذكرى، وجدرانه تصدح بأدعية الخائفين تتمايل حولها سعف النخيل كأنها تهمس بالأوراد مرتجفة تمتد مساحة رملية فسيحة نظفت بعناية. أصبح الجو فيها ملبّد بالرطوبة، خانق كرئة مريض، والسماء صامتةٌ كما لو أنها أعطت العهد للظلمة أن تسود، حتى الكلاب تلك التي لا تسكت عن نباح انكمشت في زواياها وابتلعت ألسنتها.

أشعل الضابط محمد إسماعيل المشاعل على عيدان النخيل، لا للإنارة، بل لطقوس جنائزية حزينة، وتقدّم الرجال مصطفون يحملون المشاعل على اياديهم كأنهم يمشون إلى قدر معلوم

درار في تلك الليلة بدا كأنه شبح من غضب الأجداد، او مثل فارس خرج من صفحة قديمة من كتاب الغزوات ، يمشي في مقدمة الموكب، يتقدمه المشعل بيده اليسرى، يلهب وجهه بنيران تتراقص في عينيه، بينما يده اليمنى تقبض على سيف أبيه كما لو كانت تقبض على حق مسلوب، وجهه صارماً، تعلوه حمرة الغضب، وتنتفخ عروقه كأن الدم فيه يغلي، وأنفاسه تخرج حارّة، متقطعة، كصهيل حصان في ساحة معركة. سار أهل القرية خلفه، صامتين، تتبعهم العيون والظلال، كأن الأرض نفسها حبست أنفاسها

طريق الآثار امتدّ أمامهم كجرح غائر، تحفّه أشجار النخيل كأصابع عجوز ساحرة، والظلال تراقبهم في صمت شيطاني، منطقة الآثار، تلك الخرائب الصخرية التي كانت يوماً معابد وصلوات، بدت الآن كمدينة فُقدت من الزمن، وصمتها أثقل من رائحة الموت التي تسكن زواياها صمتٌ يُسمَع فيه اللهاث، وارتعاش العرق على جبهة محسن، ويد الضابط المرتجفة على زناد المسدس.

توقف أهالي الجزيرة في وجه الظلام واضواء المشاعل تتراقص كأنها الجحيم، وقفوا أمام أطلال معابد الأجداد وكنائسهم المهدّمة، كأنهم يستنطقون الحجارة بحثاً عن أثر، عن صوت، عن نجاة. الليل حالك، لا نجوم ولا قمر، والنيل المتململ يضرب الشاطئ بعنف كأنما يرفض الصمت، يعكر سكون اللحظة برغبة دفينة في الكلام ،وقف الجميع متسمرين

أمام الكنائس، أعينهم تائهة في العتمة، وصرخات صالحين تنادي باسم ابنه:-

سَّري... يا سَّري

ردّدت ستونا النداء بصوت مكسور، كأنها تستجدي الروح من بين الأنقاض، المعابد لا تجاوبت العابرين، ولا الكنائس تهدمت لتكشف لهم عن قداس يقام.

محسن، صاحب النظرة المتوغّلة في المجهول، ظل صامتاً كتمثال عتيق في مزار منسي.حدسة ينهشه في صمت، يهمس له بأن سَّري لم يُفقد، بل خطفته قوى خفية إلى هذا المكان، حيث تختلط أنفاس الماضي بندوب الأرض، وفجأة وفي قلب السكون المشحون، انفلقت مع ضوء المشاعل حركة لا تُرى لورقة قديمة طارت كأنها من فم الأرواح، ورقة نقديه فئة خمسة وعشرين قرشًا طرادة ، تراقصت في الهواء كطيف، تهاوى من العدم قبل أن تهوي برفق مهيب، وتلتصق بجبهة درار كما لو وُسم بعلامة لا يعرف سرّها إلا الغيب في نفس اللحظة خرج، وميض خافض أضاء مذبح التقديس المهجور داخل الكنيسة، كأن المذبح قد استيقظ من موته ونطق بلسان الغائبين صرخة من زمن آخر، أو لعلها استدعاء من لا يعود ،ثم شقّ السكون صرخة، قادمة من داخل الركام، هزّت القلوب وأوقفت الزمن لحظة عم صمت الجنون لبرهة و تقطّع السكون بضحكة مبحوحة ارتفعت من خلف عمود اثري، ضحكة كأنّها قادمة من قبو الجحيم.

بخيت، بخيت ود سعدية ذاك الذي ظنوه أهطلاً، لعنة الجزيرة البريئة، خرج لا لم يخرج

بل انبثق من العدم، كما تنبثق الأرواح الهائمة من فم المقبرة، الهواء برد فجأة، والرمل ارتجف تحت قدميه، حتى الأشجار انحنت كأنها تعرف هذا الاهطل وتخشاه خرج يحمل شوالاً من خيش، لا يهتز، كأن بداخله جسد لا روح فيه، أو أرواح لا جسد لها

مشيتُه ببطء مريب، يجرّ قدميه كأن بين الأرض وقدة عهداً قديماً لا يُكسر

عيناه زجاجيتان، خاليتان من الحياة، لكنك تشعر بهما تسلخان جلدك، لا وجه له، بل قناع مشقوق من الألم والصمت والجنون

خرج بخيت وتوقفت الانفاس تتطلع اليه، واندلعت النار في مذبح الكنيسة القديمة، نار لا تشبه نار الحطب، بل كأنها نار غضب مقدّس، أو لعنة قديمة استيقظت بعد ألف عام

ظهرت سعدية الحبشية، تتراقص حول النار، شعرها منكوش كأفعى، وملابسها تهتز على جسدها كأجنحة خفاش رفعت يدها، وأشارت نحو محسن، وقالت بصوت كأنّه صادر من قبو تحت الأرض

-كنت عارفة جيتك يا الحبيب ..... إنت براك الح تقفل

الحكاية عشان كدا رسلت ليك

اهتزت الأرواح، وتراجع بعض الرجال، والنساء صرخن بحرقة، الضابط صوّب سلاحه، لكن يده لم تكن ثابتة.

بخيت خلع جلابيته ببطء، كمن يخلع جلد مخلوق آخر، أصبح عارياً تماماً كشف عن جسد نُحت من صخرٍ أسود، وعضلات تشدّها اللعنة لا الحياة، ويدان كجذعين متيبسين من نخيل الموت، أمسك عمود الكنيسة بقبضته، فاهتزّ كأنه يتلو فعلًا مقدساً، ثم رفعه بيد واحدة، ورماه كعود ثقاب اشتعل بالهلاك بعدها فتح شوال الخيش كان داخله شيء لا يجب أن يُرى

رمي محتواه أمامهم تدحرج راس بشري مفجوع جرجت معه أصوات موتي لم تدفن خرجت فزعه وكأن الشوال قبرا للعبث جديد

تدحرج رأس سَري على أرض المذبح كفاكهة فاسدة، عينيه المفتوحتين تحدّقان في الفراغ، كأنما لم تدركا بعد هول المصير. الدماء انسكبت حارّة، تشقّ طريقها بين الأقدام المرتجفة، كأنها نهر هارب من جحيم وفجأة، دوّت ضربات الطبول من بعيد كأنها صاعدة من جوف الأرض، إيقاعها بطيء، ثقيل، لا بشري. تتزامن معها زئير ضباع، وعواء كلاب كأنها تستشعر بوابة الجحيم تُفتح، الرياح تصرخ، تدور كدوامة امامهم، تحمل الرمال والرماد، وتضرب الوجوه كصفعات من

كائن غاضب. النخيل يهتزّ بجنون، الأغصان تتكسر كعظام قديمة، والسماء تبرق دون رعد كأن النور نفسه مذعور مما يرى ،صرخ درار، صوتُه شقّ الظلام كطعنة، ثم قفز نحو الرأس المتدحرج، يحتضنه بجنون، بينما النار خلفه تتراقص ككائنات حيّة تنتشي بالمذبحة، انهارت ستونا على الأرض مغشياً عليها، كأن روحها فاضت من هول المنظر، بينما ميّاسة صرخت صرخة خرقاء، انشقت لها جدران الليل، وهرعت فزعه الى محسن الذي أصابه رعب كمن يحاول الهرب من كابوس لم يبدأ بعد.

أهالي الجزيرة تفرّقوا كأوراق في ريح سوداء، بعضهم سقط، بعضهم بكى، وآخرون اختفوا بين النخيل مذعورين. الأطفال يُسحبون من الأمهات، والرجال يلهثون من الرعب، ولا أحد يجرؤ على النظر للوراء العمّ صالحين انهار على ركبتيه، كطفل فُجع بأبسط ما تبقّى له من أمل، ينوح كمن بلغ به الفقد منتهاه، وجسده يرتجف من الحزن والرعب معاً.

وفي الخلف، وسط الدخان واللهب، ظهرت سعدية كما لم يعرفها أحد خَلعت قميصها ببطء مريب، وتقدّمت إلى ساحة الدم، عاريةً كطقس محرّم، جسدها النحيل تكسوه وشوم لرموز سوداء رُسمت بإتقان، كأنها آيات لعنات من كتب نُسيت خلف أبواب الزمن ،شعرها المشعث يتطاير كأفعى سوداء في مهبّ الجنون، وعيناها ليستا بعيني إنسان، بل جوفان مضيئان بلون رماد الجحيم، تنعكس فيهما النيران والدماء والظلال التي لا صاحب لها، قدماها تغوصان في الرمل المدمّى وهي تدور

حول المذبح، تصفّق وتضرب الأرض بعصا ملتوية كجذر شجرة ملعونة صوتها خرج مجروحاً، مجبولاً باللغة القديمة، لغة ممالك ما قبل الطوفان، تقرأ تعاويذ كأنها نداء لشيطان ينتظر الإذن بالظهور ،السماء فوقها انشقت بوميض غريب ، والرياح صارت تصفر كالناي في صدر مغارة. الطبول تزامنت مع دورانها، وكأنها هي من تحرّكها بإيقاع الجحيم، والثعابين خرجت من جحورها تلتفّ على قدميها كأنها تعرفها... كأنها أُمّها الأولى

سعدية لم تعد سعدية كانت تجسيداً لشيءٍ قديم، ساحرة عادت من القرون المظلمة، من محارق النساء والقداس المحرّم، امرأة خرجت من خرافة لتعيد ترتيب الكابوس.

فقد الضابط صوابه، اختنق عقله في دوامة الهلع تلك، فأخذ يطلق الرصاص في كل اتجاه كمن يطارد أشباحاً لا يراها. صرخات الجنود تلاشت في هدير الرصاص، وهم يفرّون مذعورين، يتعثرون في بعضهم، يتساقطون كما تتساقط الأوراق اليابسة في مهب الجنون

وفي قلب الفوضى مازال بخيت العاريٍ تماماً يتمايل حول المذبح كراهب من عالم سفلي، لهب المشاعل يلتهم جسده ولا يحترق، بل يتوهّج أكثر، عضلاته تتشنج وتنتفخ كأنها تصلي، وجهه مشوّه، كأنه قناع شيطان، وعيناه تتقدان بنار لا بشرية، كجمرتين مستخرجتين من جوف بركان، سعدية بدأت

كأنها ساحرة استُدعيت من القرون المظلمة، تهمس بترتيل خافت، ثم تصرخ في بخيت، تدفعه نحو درار بيدين هزيلتين، ولكن لا تُقاوم، كأنها تسلّمه إلى مصير

امضي الى مصيرك آن أوانك.

وقف درار وسط الدمار، كأنه آخر فرسان القيامة، يقطر وجهه عرقاً ودماً، لكنه لم يرتجف... لقد خرج من رحم الكابوس

تقدّم بخطوات بطيئة، يحمل سيف ابيه، بل ينهب النور منه

وراحت سعدية ترفع صوتها بالترتيل، كلماتها تتحول إلى طعنات في الهواء، وتحث ابنها على الاقتراب من درار تزيد الجنون جنوناً

صرخ محسن، بعد ان استدرك ما ترمي اليه سعدية اخذ صوته يتلاشى وسط الطقوس

درّار.... احذر.... احذر خطيئة الغضب! لا تستسلم خرج صوته أقرب الى البكاء من الى الترجي

لكن درار، كان قد استُدرج بالكامل

الغضب القديم تفجّر من أعماقه، غضب مدفون منذ ألف عام، كُتم تحت لعنات الأجداد، انفجر في صدره كنَفَس تنّين. صرخ، صرخة مزّقت الصمت، ثم انقضّ على بخيت، والمشعل

في يده كأنه صاعقة من السماء وعندما لامس الجمر الجسد

انفجر الهواء صراخاً، تشقّقت الأرض عن لهاث أرواح مذبوحة، وانبعث دخان كثيف كأن الجحيم تنفّس، وغرقت الجزيرة في صمت أبدي.....
.....

صمت مشبع بالرماد، معلّق بين الدم واللعنة، ولكن هل قتل بخيت ام ظلت خطيئة الغضب طي الحكمة

عند حافة الصحو

كل شيء انطفأ دفعة واحدة، كأنما أحدهم نزع الحلم من مقبض الذاكرة بعنف

صوتٌ بعيد يثقب الصمت:-

-يـــا أستاذ يا افندم حضرتك، الجرعة خلصت

فتحتُ عينيّ ببطء، سقف أبيض، رائحة معقمات، يد الممرض تزيل الإبرة عن ذراعي، وابتسامة باهتة لا تصل إلى عينيه رفعت قناع الفانتولين من على انفي نظرت الى ساعة معصمي تشير الى العاشرة والربع مساء، يبدو انني غفوت اثناء الجرعة او اختفيت مؤقتا في مكان لا اسم له، نهضتُ في صمت، جمعت أشيائي كمن يُحاول نسيان شيء لم يحدُد

شكرت الممرض بصوت لم أسمعه أنا نفسي، خرجت من المستشفى وليل ثمريت ينسج

هدوءه الثقيل حول الأرصفة ركبت سيارتي وادرت المحرك، في المرآة لم أكن وحدي كان هناك شيء ظل لمعه أو ربما لم يكن هنالك شيء على الاطلاق لكنني لم التفت لم أجرؤ

على ذلك اكتفيت بالمضي كأنني مازلت نائم او مازلت هناك في مكان لا اسم له، تحركت صوب الغرفة التي استأجرتها من رجل باكستاني لا يعرف العربية الا بقدر ما يسد رمق التفاهم بيننا لم تكن غرفة بالمعنى المفهوم كانت (قبو) شديد الرطوبة لا نوافذ فيه كأنما اقتطع من باطن الأرض غرفة للمنفي او كهفاً بلا ذاكرة، ليس هنالك هواء، بل انفاس ألف عام من العرق تفوح فيها رائحة الغربة العالقة من قمصان العمال الذين مروا بأحلامهم عليها، تلك الرائحة التي لو قدر لها ان تكتب لكانت بلغة الانين ، أرضية الغرفة كانت ببلاط احمر قاتم وجدرانها مشروخة كأضلاع متعبة تتنفس رطوبة قديمة ، على السقف كانت هنالك مروحة تدور مثل دعاء متكرر لا رجاء فيه ولا هواء فقط صوت يدق كسبحة بيد مغترب يعد أيامه على مضض ، الغرفة القبو هذه لم يكن مكاناً بل وجعا صامتا سكنته لأجل حياة مؤقتة

عدتُ إلى الغرفة، حيث الوحدة تتكثف مثل بخار على زجاج ذاكرة مشروخة. تناثرت الكتب حولي كجثث أفكارٍ خذلتني، كنتُ ألتهم الصفحات لا لأتعلم، بل لأخنق بها صراخ الفراغ، وأخادع بها وجعاً لا يسكنه مورفين ولا تهدّئه روشتات الأطباء، تمدّدت على سرير أكلت أطرافه الرطوبة، رميتُ الادوية والمسكنات في سلة اليأس، وتساءلت :-

- كيف تُسكِتُ الحبوبُ روحاً يتناهشها وجعٌ بلا شكل؟

فترة عصيبة امر بها، نعم، عواصف داخلية لا تهدأ، خيبات تتزاحم، اخذ عقلي يأخذني

لأحاديث عن جزيرة تسكنها الخطايا، وعن قاتل يطارد الأرواح لا الأجساد، شيء ما في رأسي كان يضرب جدرانه بعنف هل كنت في حلم؟ أم أن الحلم كان فيّ؟

استسلمتُ للنوم كمن يسقط لا ينام، وبين جفنيّ اسم يرنّ كالإنذار

بخيت ود سعدية

من هذا؟

وأين سمعت هذا الاسم من قبل؟

تمت

مدينه صحم ٥٢٠٢

أكرم إبراهيم البكري
كاتب سوداني من مواليد مدينة أم درمان.
خريج جامعة السودان كلية الطب البيطري والإنتاج الحيواني.

من إصدارات أكرم إبراهيم البكري:

- كتاب يوم في حياة عاطل، مجموعة قصصية
- رواية مذكرات مجاه،
- رواية مهمة في أديس أبابا،
- رواية بين نارين،

له عدد من المقالات بالصحف الالكترونية وكان متعاونا مع جريدة عمان.

لم أري والدي بهذه الهشاشة من قبل، كنا نعيش في أجمل مدن الخليج طبيعة، لكن الآن لم تعد لصلالة بهجتها، ولا للطبيعة أنفاسها المطمئنة، الحرب اختزلت كل شيء في اللاشيء، قتلت في والدي الرغبة في الحياة، وسحبت البهاء من الأشياء.

ما أقسى الوطن حين يحتفل بشتات الأرواح، ويحول الأجساد إلى طيور مهاجرة لا تعرف العش، ولا الليل يعرفها. في بلدي تصير الأحزان مؤنسة، والجراح تنام في مهودها، وتغدو الدموع مرآة تُطيل النظر في اللاجدوى.

كان والدي قد انضم إلى أمي، محاولا إعادة ذكري هشة لتفاصيل نفس التوقيت في امدرمان، رائحة الألم كانت تملأ أجواء الغرفة، والدموع متحجرة في عيني أمي، كأنها تخشى أن تتكسر إن بكت. كل شيء صار صامتا، حتى رذاذ المطر المعتاد في صلالة بهذا الوقت من العام بدأ كأنه بكاء حزين على ما آل إليه حالنا.